سامي الجندي

كسرة خبز

دار النهار للنشر ش.م.ل
بيروت لبنان

الطبعة الثانية

دار النهار للنشر ش.م.ل.
بيروت ١٩٦٩

مقدمة

عندما نفقد النور وتمسي حياتنا ظلاماً ابدياً يصبح النوم أجمل حيلة ابتدعها الله ، تفّاحة حوّاء ، تصبو إلى قطافها أصابع قلقنا ، راجفة مستعرة الأعصاب ، نرقد فلا نهجع إلا لماماً فترين على جفون احلامنا سعادات واحزان بريئة من درن الكهولة . نرتد إلى جداول طفولتنا ، نغمس بها أقدامنا حتى ليبتلّ يأسنا برطوبة مساء بات قصيّاً ، كأن الذي شاهد غياب شمسه إنسان آخر .

كلما نمت حلمت بذلك الطفل الصغير اللعّاب . أحلامه ما زالت بين يدي تملأ شعاب حياتي حيرة وعجباً . وددت لو أني دفنته . هو الذي يدفنني . كلما ألم بي طيفه سخر من دروبي كلها ، من غبائي وكل الزيف الذي عشته بعيداً عنه .

كلما نمت رأيته يقطف زهر الوحواح ، يركض مع كلبه القوي وراء الأرنب يبحث بعصا عن العقارب ، يغسل خروفه بالساقية أو يعود من الكرم مع الشمس وجحشه ينوء بالعنب ، يقرأ وهو راكب معلقة عمرو بن كلثوم ، يحفظ عشرة الأبيات كي يلقيها على مسمع ابيه أو كان عقابه الضرب .

أراه قابعاً مع اخوته الصغار وقد حملق بأمه يستمع اليها تروي قصص ابي زيد الهلالي وعنترة والزير وذي يزن أو قلّد رواية جدته

شعر الفارض حتى إذا يفع قليلا روى لاخوته ما حفظه عن ظهر قلب من الإلياذة يلقيها إلقاء رواة القصص في المقاهي .

شاهد « كراكوز » فعمد إلى علب الدخان وقصّها على نفس الطريقة ووضع القنديل في النافذة وراء السجف وحرك صوره وبدّل صوته حسب أبطال الرواية حتى يتثاءب الصغار . كانت دنياه ثرة اللهو كثيرة الصور .

حياته كانت اكثر طيشاً منه . عرف تقلبات الثروة ومفاجآتها . كان غنياً يلبس حريراً ثم جاع قبل أن يهترىء ثوبه ، كأنّ الفقر والغنى ينتظرانه وراء منعطف لا يعلم أيّهما يحتويه قبل الآخر إلى أن آلت الأمور إلى حال وسط قريبة من الغنى مهدّدة بالفقر فاتّسمت طفولته ثم شبابه بميسم القلق والتأمل والاستهتار بالغد ، بالحياة والموت ، لا تغريه ثروة ولا يرهب فقراً كطيور البرية آخر من يحسب حساب الصياد .

كلما هجعت عدت على جناح الحلم اليه فعشت معه كل براءته عودة المؤمن إلى محرابه كأنه الملجأ الذي يؤويني من مرارتي ، ينزهني من تجربة كأسها علقم ، دربها وحل .

أظل أتأمله . كيف كان يتصور العالم ؟ كيف كان يرى نفسه عندما يشارف الخمسين ؟ أديباً أم قائد جمهور ؟ تقلّب حياته حباه منذ نعومة ظفره بالقدرة على الاختيار . بؤس حيّه ، أطفال ذلك الحيّ الذين كان يسرق معهم البساتين ويخوض معهم معارك المقلاع ويروي لهم حكايات أمه وأبيه ، يركب معهم الخيل إلى طراد مجنون ثم كسرة خبز تافهة لا تعني شيئاً حتى لكانسي الطريق جعلت من شخصيته الانسان الذي صرت فيما بعد .

طفولة الانسان ، مرحها وأحزانها تحوك له نموذجاً إنسانياً يتحراه

كي يحققه وأنا في الفترة التي بات عمرها الآن خمس سنوات والتي واجهت فيها نفسي بلا خوف ولا غرور أحصيت كل أخطائي وقارنت نفسي بالنموذج الذي حلم به الطفل فكانت الخيبة كبيرة لا تترك لي بقية أيامي أن أعود خطوة واحدة إلى وراء فأعوّضها وسؤال يلحّ هل كانت حياتي اختياراً ؟ هل الانسان قادر على الاختيار ؟ هل اخترت أن أرى الحياة من خلال بؤس الحيّ في الحقبة التي بدأت تتكون فيها شخصيتي وآرائي ؟ هل يمكن للمرء أن يختار صورة وجهه أو بنية أعصابه ، شجاعته او جبنه ، طاقته على مجابهة وعثاء الحياة ؟ كانت الصور قاسية تفوق طاقة احتمال القهر : الأطفال المثقوبة نعالهم ، الأسمال التي لا تقي البرد ثم المرض والجوع . قلّما كان يكتمل عدد الطلاب في الصف : هنالك دائماً مرضى . كثيراً ما كان يسقط طالب إعياء .

كان لابد لهؤلاء البائسين من محرر وحَلِمَ الطفل بأمجاد أنبياء غزاة ونظم عصابة الحيّ وقرأ عن اللصوص الشرفاء فسرق ورفاقه البساتين ، إذا جاء الحارس رموه بالحجارة ، حتى إذا عاد إلى البيت جلده أبوه ثم استدعاه لرواية أبيات اليوم ، رتلها له ترتيلا فأمره أن ينظف المضافة أو يسقي الضيوف قهوة ، دليل الرضى عنه فقد كانت عنده خدمة الضيف مفخرة لا تجوز لمذنب .

أخذت بعد أن يفع صورة المحرر تكتمل في أعماقه من خلال قراءات وأفكار وبؤس بشر ، إذا جاء الموسم جيداً نعم حيّه بالرخاء فقرأ وكتب ، وإذا جاء سيئاً اعتصرته آلام رفاقه .

كان النموذج يرسخ عبر حياته . كان اختياره انه ترك نفسه مشرعة للتجربة . لم يفرّ منها ولم يراوغها ، أقبل عليها نهم الأعصاب يحدّق فيها بكلتا عينيه فتقضم روحه وتغنيه . عاشها في توتّر مقيم

ذهب بكل ما تعلّم وحفظ . فقد وجد أن التاريخ الطويل : التقاليد والعادات ، كل ارث الماضي لا جدوى منه ، بل اعتبره مسؤولا عن الشقاء . كان لا بد من تبديل هذا العالم .

كانت صورة العالم الجديد رؤيا فنيّة ، حلْمَ أديب ، فيها من الجدب اكثر مما فيها من الأمل وقد يبدو التعبير غريباً . كان يحس كل يوم انه يهوم في الفراغ . لم يكن ذلك وهماً ابداً .

لقد لقيت مما ظن الآخرون نجاحاً ما لم يلقه إنسان آخر . كان التصفيق والهتاف يعلوان دائماً عندما أخطب . كورس المناضلين الذي أصبح فيما بعد قيادات خطيرة كان يشحذ أصواته ويديه منذ ما يعلن عن كلمة ألقيها . وكان يرهبني أن تحول الثورة بياناً سياسياً يردده هتافون رعاع .

كان شقاء من حولي بعد أن بتّ طبيباً يعيدني دائماً إلى خيالات طفولتي يؤكد لي ان الأعماق هي التي يجب أن تتحرك وأن السطح هو الخطر على الثورة ، ان الجذور العميقة في الأرض وبين الشعب هي التي تبني المستقبل بناء حقيقياً بعيداً عن الزيف الديماغوجي . استطاعت نزعة الأدب أن تعصمني مدة طويلة من الغرور ومن الدجل السياسي .

يذكر الذين كنت اريدهم مناضلين حقيقيين أني لم أتكلم عن السياسة إلا مكرهاً خلال خمسة عشر عاماً . مكتب الحزب كان مدرسة فقط قرأنا فيه القرآن والانجيل والشعر . ردنا كتباً كثيرة وكنا نكتب أيضاً . لم يعننا من التوجيه الحزبي الا ما انسجم مع عقلنا الجديد .

السياسة كانت عندنا شيئاً آخر . بناء عالم رواده أطفال يكبرون ولا يهرمون يظلون على براءة الطفل : عالم فنان .

هذه الصورة يجهلها عني البشر ، يعرفون السيد الوزير الذي نسي الطفل مراث كثيرة وصرخ عالياً أحياناً . يعرفون الصورة التي فرت

منها سنوات خمس ثم وجدتها أمامي بعدها ، تطاردني ، تملأ فجاج حياتي شقاء .

عندما أصبحت وزيراً كنت في غفلة عن أمر نفسي وعقيدتي ، لعب منطق الأهواء في قبولي دور المخدر ، بررته بأن السلطة تمكنني من تحقيق أفكار كثيرة . كان ذلك رياء وخداع المؤمن لإيمانه عندما تعميه الانتهازية عن حبّه وطفولته . قد يكون بعدي عنهما آنئذ وفقداني جذوري دافعاً أساسياً لهذه المهزلة الإنسانية .

لم يستطع احد ان يدرك لماذا لم أؤلف الوزارة عندما كلفت بتشكيلها ، فقد كانت كل الظروف مواتية للسياسيّ الذي كنته . لم يصدق أحد كل ما قلت ، ظنوا أن الاسرار الخفية هي التي أقصتني وكانت هنالك اسرار ولكنها لم تكن العامل الأساسي .

قضيت أياماً ثلاثة كنت فيها على صليب . ما كنت أظن أبداً ان الهوّة سحيقة إلى الحدّ الذي رأيت . كانت استقالتي رفضاً ، عودة إلى الأديب الطفل ، كان الصراع في روحي جدياً : ماذا يعطي وطنه من يخسر نفسه ؟

في الوزارة زين لي الغرور مرة اخرى ان الأديب عامل ضروريّ كي لا ينزلق السياسيون في مزالق شهوة السلطة . أعترف أن ذلك كان احتيالا مني على نفسي .

كنت رغم مشاكل الحكم وصعوباته أقرأ وأكتب وأظن أن القريبين مني آنئذ يذكرون مسرحية « ذو شناتر » التي بدأتها في سجن المزة وانتهت في مكتب الوزارة . ثم ما عاد يطيق الأديب لهو السياسيّ به .

كان بوسعي ان ابقى في سورية عندما طلب إليّ ان اغادرها سفيراً لها بباريس ، فقد كان السياسي ما يزال على بعض القوة التي

وجدها الأديب وهماً فاختار أن يفرّ من سنة في الحكم ليست من حياته ، وقد تكون نفاقي الوحيد أمام نفسي . كانت سنة بغياً أفقرتني كثيراً طبعت كل حروفي باليأس . ما زلت ادفع ثمنها من أعصابي شقاء يطوّح بكل بصيص نور في روحي .

هذه السنة هي « أنا الناس » يعرفونني منها ومنها فقط ، من خلال حملات بعضها صدق واكثرها كذب . ظلّت تلاحقني أنى حطت بي القدم كأنها « أنا الأسطورة » لها كل يوم حدث جديد حتى تكتمل ملامحها عبر الزمن . هذه الأسطورة لا أعرف عنها إلا قليلا نادراً مما يروى بناها لي الحقد عليّ حتى لأتساءل : ألهذا الحدّ كنت مسيئاً ؟ لا أظنني قادراً على كل هذا الشر وإن كنت قادراً على بعضه ، ويزين لي غرور من نوع آخر هو غرور الفنان أني ما عدت قادراً على شيء منه فقد تأملت نفسي طويلا ورميتها أنا بالحجر لاني أحببت أن أجنّب الخطاة رجمي . ان قسوة الفنان على نفسه لا رحمة فيها ابداً ولست أزعم من هذا اني فنان أصيل فقد لا يكون لي منه إلا قسوته على نفسه . إنه النموذج الذي بناه الطفل للكهل صمّمت على أن أحققه في ذاتي وقد أفشل ولكني أسلك في حياتي السلوك الذي يمليه على نفسه مؤمن بالفن .

قد يكون الحاحي على نشر كل ما كتبت شعوراً بالذنب وتبريراً لنفسي ، رغبة مني في أن يعرف البشر من أنا ولكنهم يرفضون رؤية كل شيء إلا الأسطورة فهي أرضى للخيال . يأتيني أصدقاء وصحفيون فنتحدث عن « عرب ويهود » و « صديقي الياس » طويلا واكتشف انهم لم يقرؤوهما وانما ما روي عنهما من إشاعات و «أسرار » ويؤول بنا الحديث حتماً إلى ريبورتاج نشرته مجلة « الحوادث » التي احترم أصحابها وما احاطوني به من صداقة وود ، تذكر فيه أني

قابلت آبا إيبان بعد ٥ حزيران ، فلقد اكد لها ذلك بعض من يريد أن أبقى السياسي وهم يعلمون علم اليقين أني رفضت رفضاً قاطعاً أن أقابله .

كل من عرفني في باريس يعلم أني كنت حينما يصطدم الأديب بالسياسي أرفض الثاني دون تردد . أنا لم أقابله لأن الفنان يرفض عهر المغلوب . إنه لا يركع ركوع السياسيّ . كان وزير الخارجية الدكتور ماخوس يراوغ ويحيط حديثه بهالة قدسية عن التضحية . يطلب مني ان اكون كبش الفداء ، يقول : «كنت حتى الآن ودائماً الهدف الذي لا يخشى السهام . يجب ان تحاول من أجل الجولان . » وكنت أعلم كما يعلم هو أن اسرائيل لن تتنازل عن حفنة تراب ، فلماذا الإيغال بالذل ولماذا يختارني أنا . لماذا الاحتيال عليّ .

ما كان يجهل أحد من الذين أوتوا اطلاعاً على السياسة السورية أني لم أكن السفير المدلّل كما ظنّ كثيرون . كنت منبوذاً منها تأخذ عليّ سلوكاً لا يتطبّع بطباعها ونقداً لم أحرص على كتمانه أو جبهه في كلّ مناسبة . أجيب السائل عن أيّ موضوع يتعلّق بها بلا حذر ، أكان محبّاً للمعرفة أم كاتب تقرير ، وما اكثر اصحاب «الأقلام» التي تتصيّد مثلي ابتغاء مرضاة المسؤولين وعطاياهم . ما اسخى حكم سورية على النميمة والنمامين ، يغدق دون ونى أو حساب وكنت غنيمة طيبة سهلة ، مصدر رزق وشأن للذين يعرفون دخيلة الحكام وكرههم لي .

بعض العقائديين أصبح « ذا خطر » إلى أجل ، استمتع الشعب بصوره الجذابة على الصفحات الأولى لأنه أطلع — مخلصاً للحزب والقضية ، لا يروم من وراء تقاريره إلاّها — الكبار على آرائي الهدامة ويمينيتي ورجعيتي والانحرافات المكبوتة التي كشفتها مسيرة « الثورة الظافرة » وسقوطي مع من سقط من الرفاق على طريقها الخطرة ونعوتاً أخرى من تلك التي توقظ « العطاء » الثوري وتثير كرمه .

سال الحبر على ورق التقارير عني أغزر منه عن اسرائيل . ولقد عذلني الصديق لائماً لي أني أغفل أمر نفسي ولكن غبائي لم يبح لي الكتمان . كنت أريد لهم الخير ، ألحّ عليهم أن يكونوا مؤمنين حقيقيين ، أن يقلعوا عن الغوغائية والدجل . روابط عاطفية كثيرة كانت تشدّني إليهم ، فهم جزء من شبابي ، لم يستطع خيالي أن يدرك أنه كان عبثاً إلى هذا الحدّ . إصلاحهم كان يعني أنه لم يكن دون جدوى ، كان اسفي عليه يدفعني إلى النقد لعلي أنجو من تبكيت ضمير من بذر فتوته في أرض يباب .

كنت أنذرهم أن سبل الثورة باتت خطرة على نفسها وعلى الشعب وأنها ما باتت ثورة بل انقلاب شرذمة ، أدى بها الغرور والأنانيّة والتمسك بالحكم إلى طغيان بوليسي لا هدف له ولا رجاء منه غير الخراب والتخريب والولوغ بالدّم والشرف .

من يذكر الاشاعات التي كان يطلقها الحكم كلما قدمت دمشق من باريس في أمر خاصّ أو عام من محاولة انقلاب إلى مؤامرة وعددَ المرّات التي صدرت فيها الأوامر للحدود بعدم مغادرتي البلاد ، يُعجب لعرض الدكتور ماخوس. ولا أقدّر أنّ إسرائيل تجهل هذه الأمور وهي التي تعلم كلّ ما تريد أن تعلم عن حكم سورية فلم اختارني إذن ؟ أليس اختياره مدعاة للعجب ؟ زعم لي أنّها مبادرة خاصة وأنّ الأمر يظلّ مكتوماً بيني وبينه وأنه يريد أن يقوم بلعبة ذكية « تفاجئُ العالم جميعاً » وتنقذ جزءاً عزيزاً من أرض الوطن من الاحتلال وأننا لو نجحنا لسجّلنا نصراً تاريخيّاً أهم من « غزو جبل طارق » على حدّ تعبيره وأننا نثبت للعرب أن الثورة « ليست عنيفة فحسب وإنما هي ذكيّة أيضاً . »

كنت أسمع فلا أصدق وهو يشير بيديه ويقطب ويتهيج :

مسرحية حقيقية . قلت له : « ولماذا ننفرد بهذا العمل التاريخي ؟ هل تضمن موافقة الرفاق لو وصلنا إلى حل ؟ »

قال وقد أخذه الحال : « أنت مجنون ... هل تظنّ أنهم يرفضون ؟ خاصة إذا بقي الموضوع سرّيّاً ؟ »

فطلبت منه تفويضاً شخصياً يبقى سرّيّاً إذا تعذّر أن يكون جماعيّاً ، يعرف منه الناس ، فيما لو حدث ما لم يكن في الحسبان ، حسن النيّة التي دفعت إلى ركوب هذا المركب. فثار الدكتور قائلاً : « أنتم جيل الحزب الأوّل لم يعد منكم « كار » هرمتم وخرفتم وجبنتم عن تحمّل المسؤولية . لم تعودوا أهلاً للتضحية . لو كلفكم الوطن العربي والوحدة العربيّة ومستقبل الأمّة العربية الاستغناء عن فنجان قهوة لما فعلتم . »

واصطدمنا فلان وأخذ يذكّرني بجنرال انكليزي اعترف بخيانته في الحرب العالمية الأولى وأعدم من أجل تنفيذ خطّة رأت القيادة ضرورة موته كي يصدق العدو التقارير الكاذبة التي أرسلها وأعيدت محاكمته بعد النصر وبرّئ وأعيد اعتباره .

رأيتني بعين خيالي معلقاً في ساحة المرجة وتساءلت بيني وبين نفسي لم ؟ هل يعود الجولان على جثتي ؟ هل قضيته على هذه البساطة ؟ من يعرف الدكتور ماخوس ولبوس البراءة التي يرتدي والتي خدعت الكثيرين لا بدّ له من أن يذهب به الظنّ مذاهب شتّى وأنه يبطن غير ما يبدي وليس هو بالذي يبادر المبادرات الخطيرة فما هو غير صوت معلّمه يغنّي فيطرب إذا شاء له ذاك ويأتي نشيده نشازاً إذا أحبّ له .

من يعود إلى التاريخ ويقرأ مذكرات « وايزمن » يعرف أن اسرائيل لا يمكن أن تتنازل عن الجولان . لقد نبهت حكومتي منذ ١٩٦٥ إلى

أنها تنوي احتلاله . كنت أعارض، دائماً في حرب مع اسرائيل أعرف أننا فيها خاسرون . التقارير التي كنت أحملها من لجان « المتابعة » سنة ١٩٦٤ يوم كنت ممثلاً لسورية فيها ما كانت تدع مجالاً للشك في الهزيمة إذا قامت حرب . كلها كانت تؤكد أن القوّة العربية لم تصل إلى نصف قوة اسرائيل. ولقد دخلنا في حرب ١٩٦٧ بأقل من نصف قواها وما كان أحد من المسؤولين يجهل ذلك . فكيف إذن يعود الجولان « بلعبة ثورية ذكية ماهرة » ؟

آرائي كلها ، دون استثناء كانت ضد الحرب . لم أخف أبداً أن الحكم يعدّ لهزيمة لا لاسترداد فلسطين . لم تكن هنالك أية بادرة للنصر ولا أعني أنه كان يعدّ لهزيمته نفسه وإنما لهزيمة العرب الآخرين كي يبقى « الثوري » الوحيد ، سيّد المناخ الثوري العربي .

قلت له : « وما الثمن الذي ندفع بالجولان » .

قال : « الأعتراف » .

وكنت موقناً مثله وما زلت أن إسرائيل ليست حريصة على الاعتراف بها ولو شاءت لحصلت عليه، لأنه يفقدها مبرر « الدفاع » عن نفسها واحتلال أرض أخرى سنة ١٩٧٠ [1].

لم إذن اختارني الدكتور ماخوس لهذه المهمة وهو لم يعدم الأشخاص ولا الوسيلة للاتصال بإسرائيل . ثارت أقاويل في باريس نفسها عن أمين منظمة الحزب التابعة لدمشق . وأنا متأكد من أن اتصالات جرت عن طريق اكثر من دولة « ثالثة » وفي اكثر من عاصمة . أليس عجيبا إذن أن يختارني أنا ؟ الأمر على غاية البساطة : من أجل أن أسكت. وقد أكون من القليلين الذين يعرفون أشياء كثيرة ، الوحيد الذي لم يستطيعوا

---

١ راجع كتاب « عرب ويهود » .

توريطه في قضية الجولان ، الوحيد الشاهد عليها وعلى استغاثات الدكتور ماخوس يوم طلب وقف إطلاق النار : ليدعوا دمشق ، نسلّم القنيطرة ، ليقف الزحف ... أُمر الجيش بالانسحاب .

اسئلة كثيرة ترد إلى كل الأذهان : لماذا لم يطلب الحكم السوري وقف إطلاق النار مع المتحدة والأردن ما دام الاستمرار بالقتال مستحيلاً ؟ يجيب الحكم السوري أنه كان ينوي متابعة الكفاح المسلح ولا ننس أن الحدود السوريّة لم تمس إلا في ٩ حزيران .

عندما نتتبّع فصول معركة الجولان نجد أن العسكريين الذين قاوموا فعلوا دون أوامر . أما الذين صدرت إليهم فقد انسحبوا بناء على خطّة... ترى ما هي الخطة ؟

تمّ اخلاء الجولان من السكان منذ ٥ حزيران . لماذا ؟

لست بحاجة للقول أن اعلان سقوط القنيطرة قبل أن يحصل أمر يحار فيه كل تعليل نبنيه على حسن النيّة ... ان تداعي الأفكار البسيطة يربط بين عدم وقف إطلاق النار والحدود سليمة والالحاح بل الاستغاثة لوقفه بعد أن توغل الجيش الإسرائيلي في الجولان ويخلص إلى الاستنتاج بوجود خطّة .

فوجئت لما رأيت على شاشة التلفزيون مندوب سورية في الأمم المتحدة يعلن سقوط القنيطرة ووصول قوات اسرائيل إلى مشارف دمشق والمندوب الإسرائيلي يؤكد أن شيئاً من ذلك لم يحصل .

قال لي الدكتور ماخوس فيما بعد أنها كانت خطّة ماهرة ل«إرعاب» العالم من أجل إنقاذ دمشق .

سألته ، والكفاح المسلّح؟ فالقى تهمة النكوص على الرئيس عبد الناصر وادعى أن قيادة الحزب تحتفظ ببرقيّة منه تطلب إيقاف القتال .

عدت فسألته هل كان القتال ممكناً ؟ فأجاب بحديث طويل

استطعت أن استخلص منه أن لا .

لم أشكّ أبداً أن الطلب إلي لم يستهدف غير إدخالي ضمن « الخطة » فأبيت .

كان رفضي سبب كل ما حدث لي فيما بعد . واجدني في غنى عن الحديث اكثر من ذلك عن هذا الموضوع في هذه المقدمة . ومن يحكم المنطق بعيداً عن الأهواء في كل ما حدث لي بعد من سجن وتشريد لا مبرر لهما يصدّق قولي . وأنا لست نادماً ولو عاد الزمن بي إلى نفس الظروف لما اخترت إلا « أنا » الآن .

لقد جمّع الطفل خلال أربعين عاماً روحه على طرف ريشته .

كان يلحّ علي في ان أظل بريئاً مثله مشرع النفس لرؤيا فنان كلما نأى بي الغرور عنه لم شعث روحي وأطل علي في أحلامي بحريره وأسماله ، بمرحه وشقائه ، ينتشلني من الوحل إذا انزلقت فيه قدمي ، يروي لي الشعر وحكايات قروية فيعصمني عن أن أبارح « الأنا » التي يجهلها الآخرون .

هذه الطفولة شدّتني إليها دائماً، ولدت منها ... عندما يغمض الموت جفنيّ سيحار في هذا الذي لم يخفق قلبه على هواه إلا حيث كان يلهو الطفل ويتعذب ، حيث كان يقفز بين الكرم والجدول ودروب الريّ والظمأ .

كسرة خبز

كان لا بد من الرحيل !

نفر البيت الكبير أهله . جهدوا في أن يغلقوا أبوابه غير ان صدأ المصاريع الذي علقها منذ أجيال كعاشق أصيل لم يبح لهم ان يسدوا منافذ الزمهرير . ظل السائل يدخل ، فلا يطرق فناء الدار عند العشي ، يقتعد المرتبة الحجرية غافلا عن عيون الأطفال الستة الخائفة من أن يسلبهم زادهم ويضيق الأب بهذا القابع الذي لا يريم مكانه فيقف محنقاً ينظر اليه بعين قاتل يجرض بريقه ، يزم شفتيه يشد بفكيه بعضاً على بعض فيسمع لأسنانه صرير يكاد يسحقها ويمشي اليه ثم يعود وتصعد يده اليمنى إلى شاربه فتفتل الشعر الأشقر بقسوة ساديّ : ثم يصيح فجأة كقرصان : — العشاء للضيف !

ويتكوّم الأطفال على أمهم كمتاع في زاوية بيت فتروي لهم قصص الزناتي خليفة .

ما كان يعلم أحد ان الريح حبلى بكل هذا الصقيع . في السنوات الخالية كانت تجهض على مشارف القرية ندى فتخضر المروج ، تلد الأغنام فيسيل اللبن أنهاراً ويذوب النحل عسلا وتزرع المهارى الطيش على التلال ، طراداً ثرّ الصهيل ، فتشرع الخيام ذات الثلاثة « طرائق » والأعمدة العالية ويرن « المهباج » عند منبلج الفجر بلحن

غجري يسحق فيه الأب حبّ القهوة المحروق و « الدلال » على النار
تُغلى بعد بها، تنتقل من دلّه إلى دلّة ، فما يبتسم الشرق بأولى خيوط
النور حتى يستاف وضيوفه سلافها الطيب المذاق .

تلك السنة ضنّت الريح بجنينها ، تشبّث بحناياها ، عشّش في
ذراتها فأخذت تسفوه في كل المسالك فينسرب كقشعريرة وترتجف
الكائنات برداً . ملأ الثلج فجاج القرية وروابيها . كنا نرتعد جميعاً ،
ننفخ لها ثناياً يدينا حتى تدفأ ، نضرب الأرض بأرجلنا ، نرقص عليها
رقص جدي حرن حتى يصل إليها دم القلب وتبدّى العشب مسودّ الخضرة
كوته نار الصقيع . كان لهوي الوحيد ان اكسر الجليد بالحجر لعلي
أرى ماءً تحته فتصيح أمي :

ـ أقول لك عد إلى الغرفة ...

فأنصاع خوفاً من أبي .

كنت أنام واخوتي في غرفة شمالية نقرّب الفرش ويلتحم ،
بعضنا ببعض ، حتى لنغدو كتلة لحم لها ستة وجوه .

ذات صباح بليد استفقت قبلهم وانفصلت عن الكومة البشرية ،
بقيت في الفراش أنظر من النافذة . كان أمامي قضيب من الجليد
يمتد من المزراب إلى الأرض شفاف بلوري كالماسة الكبيرة التي قدّمها
العفريت لعلاء الدين يوم زفافه بابنة الملك ، وكنت أحلم دائماً بالماس
والجواهر والموائد السخية . قصص أمي أرى بعضها نائماً وأحلم
يومي بقصورها وجنياتها . أضرب الجليد بحجري الأملس الصلد
أنتظر في سرّي أن ينتصب أمامي العفريت قائلا : « لبيك ! عبدك
بين يديك. »

كنت اود ان اقول له : « إجعل الجليد ماسداً . أريد ان أرصع
بالتيجان رؤوس البائسين جميعاً . أحبّ أن اغدق عطاياي الثمينة على

الحزين حتى يغرق بالمسرّة . »

كان القضيب مشدوداً بين مزرابه وأرضه دقيق الملامح رقيق القامة
حتى لتبدّى لي على جمال جنيّ فقفزت من فراشي . أمسكت بحجري
وركضت اليه . وعلى قدميه وجدت آخر نعاجنا ميتة .

لم يبق من القطيع أحد . ما كان أحلاه ! كيف كنت أطفر بين
نعاجه أروح وأجيء كخروف، والكلب نسناس يجري معي أختبىء
وراء « المرياع » فيعض ثيابي فأضحك ، أضحك وأرمي له خبزة
فيعدو اليها وأركض باتجاه آخر . كان القطيع كبيراً أتعب اذا درت
حوله فاراً من نسناس فأختبىء بين نعاجه أشم رائحة صوفها العوسجية
حتى الدوار .

كانت « السمحة » تحمحم ، تضرب بحافرها إذا اقترب منها القطيع.
لم تكن مثلي تحب الغنم . اقترب منها ، أهمس في اذنها . أسألها لماذا
تكرهها فما تجيب . كنت الحّ ، الحف ، أريد ان أعرف . أتقرب
اليها بقطع السكر . كأني بها كانت تعدني بالبوح ثم تنكص عن وعدها
كامرأة لعوب . كلما أعطاني أبي قرشاً ركضت فاشتريت سكراً
ووضعته قطعة بعد قطعة على راحتي فتلتهمها واحدة بعد أخرى
وتضحك صهيلا . ترى أكانت تضحك مني أم فرحاً ؟

كانت تتألق إذا امتطاها أبي يبدوان كغزوة مضرية . يشمخ
عنقها على حران مغرور يتقوس ويتوتر شعره كقبة أندلسية . يمسك
بالعنان كأنه وتر قوس رشيق السهام . يعلو ذيلها كمروحة سيدة ،
تبدأ عدوها بطيئاً متكبراً يرقل جسمها جميعاً إلى اليمين ثم إلى اليسار
كأنها تأبى غروراً أن تتجه إلى أمام ثم تنزلق كريح أو ومضة نور
وينزلق هو معها يقلّب عدوها قليلا إلى يمين ، قليلا إلى اليسار حتى
لكأنهما موجات بحر .

قلّت عطايا أبي وقلّ السكر على راحتي . كلما ظفرت بقرش جئتها قفزاً فرحبت بي ثم أخذت أجيئها شاكياً خجلا بلا سكر .

لم يكن ذلك سهلا عليّ . جانبتها أياماً عديدة . أحنّ اليها فأذهب إلى الاسطبل وأقفل راجعاً قبل أن أصل اليه. ثم الحّ عليّ الشوق. لطوت وراء الباب أو صوص من خصاصه وحدست بوجودي فالتفتت وصهلت تدعوني حييّة النداء مكسورة الغرور فدخلت . لكم كان العناق ثراً حزيناً . بكينا معاً . كانت عينها السوداء الواسعة سخية الدمع ولمحت في أعماقها كآبة شريد ، رموشها الطويلة تبدّت لي مقروضة بناب الرحيل . كانت عروق بياض العين حمراء . ما عادت المسكينة نؤوم ضحى كسيدات القصور . أنا نفسي كنت مثلها متقطع النوم .

كان مزودها مليئاً بالتبن لم تأكل منه إلا قليلا وعهدي به يظل مترعاً بالشعير والمعبوكة . هانت بعين نفسها ، تدلّى ذيلها وانحنى عنقها تلوح به فلا ترفعه يهبط قليلا قليلا لا يعلو ولا يتكبر . نحل قوامها دون ان تنجرد لطراد . كلما نفقت نعجة ذبلت أكثر مع أنها كانت تنفر رائحة القطيع . من أين جاءها كل هذا الهمّ . كانت تضوى حتى غدت كرباب نوريّ .

كنت إذا زرتها أقبع على طرف المزود أهم بأن أقنعها بأكل التبن فتعافه . وضعته على راحتي فقرّبت فمها منه فخجلت فنفخته فتبعثر على وجهها والتصق فبدت سحنتها كلبنة بائسة فعطست كمصاب بزكام ثم اختفت ولا أعلم أين . ظللت أزور المزود وحيداً . أنتظر حتى الساعة ايابها ولكنها لم تعد وبات الفارس راجلا يمجّ الطريق أثقال خطوه .

باع أبي تراثنا بثمن بخس . المرآة الصافية الكبيرة بشمعدانيها

بكل مرمرها وصدفها ، نقوشها كلها ، لمسات أصابعنا عليها ، مسح أمي لها بالمنديل ، صور طفولتنا التي كانت تتراءى لنا على زجاجها صباح مساء ، قفزنا أمامها ، عويلنا وضحكنا الذي احتوته ، تهريجنا صراخنا مرحنا وبكاؤنا اشتراه كله تاجر الآثار بعدة قطع صفراء هزيلة حسودة الوجه كبعبع من ذهب .

أخذ يدور الشراة حول بيتنا ، يتنصتون وراء الجدران ، يمتطون الجدران في غفلة عنا ليروا ماذا في فناء الدار ، حتى لقد عافت قطتي الشامية مواءها الحنون على الجدار وذبلت الكرمة خجلا . الوردة الدائمة العبير ذوى عبيرها ، قلّم الحياء أظافر شوكها ، نبت الشوك عليها مقلوباً ، ارتد إلى القلب .

أخذوا يسألون الداخل علينا والخارج من عندنا : ماذا أكلوا ؟ هل يأكلون ؟ كلّما خوي الطبق اشتروا شيئاً فقبض أبي على قطعة أو قطعتين مدورتين خشنتين كمبرد على كف كريمة .

باع كل شيء . لم يبق إلا سيف جدّ جدّي ودلال القهوة والمهباج وكتباً قديمة اوراقها صفر ، حبرها كثيف ، لا تسرّ الشارين .

نزل السيف عن الجدار . قلّبه بين كفيه . استلّه من قرابه فما تحرك . أذاب السمن على فتحة القراب ونضاه فلمع كجوهرة . جاء به جدّ جدّي في أعقاب غزوة وأجلسه منذئذ على عرش . دبّ البلى إلى قرابه وقبضته وظل النّصل ماضياً كأنه كان يقطع أوصال السنين . باع بندقيتين ومسدساً . أما السيف ؟ من يملك ثمنه من ذهب .

وطرق بابنا بدويّ قال لأبي : ردّ لي سيفي .

– من أنت ؟

– وارث السيف .

– يرثه من يقطع بكفّه .

— أخذه جدّك غيلة .

— بل أخذ عزيز .

— ما كنت جئتك لو صدق ما قلت .

— أبطأت !

— بل اسرعت . جمعت كل الروايات حتى تأكدت مما زعمت وكذلك فعل أبي وجدّي .

— وأنا استقصيت . كان جدّي فارساً .

— ولكنه لم ينازل جدّي فارساً لفارس . أخذ سيفه في المعمعة .

— لو نازله لما اختلف الأمر .

— لم ينازله ! لم يدعه للبراز !

قال أبي : « خذ سيفك » .

بات الفارس بلا مهر ولا سيف .

لم يبق غير متاع قليل وكتب صفراء حبرها كثيف ودلال قهوة ومهباج . كان لا بدّ إذن من الرحيل .

ركبت الجحش الصغير ونيط بي أخي فوق فراش رقيق وثيابنا في « خرج » . وسارت وراءنا الأسرة في قافلة إلى قرية صغيرة نملك فيها أرضاً لم يشترها أحد ولم نبعها .

لم يكن أبي معنا . كنا وحيدين ، نجهل أين ذهب بعد صلاة الفجر في المسجد الجامع . لا نعلم ماذا قال يومها لالهه . كان شرساً كطاغية فيه كل القدرة على الكفر حتى لأعجب من أين كان يجيئه صفاء الصلوات : تجمد أعضاؤه ، تثبت عيناه على شيء ما وتلمعان ، إذا صلّى .

سارت القافلة واهنة حييّة قبل طلوع الشمس وخبب العربة الأصم يكرهنا على الصراخ إذا قال منا أحد كلمة لآخر . كان صباحاً فارع

المرح ، رغم كآبة الراحلين .

عندما شارفنا الهضبة قفز الجحش ونهق وسقطت وأخي أرضاً ؛ فقمت أتحسسه . جرح جرحاً صغيراً مسحته واعنته على الوقوف .

كان ابي على باب الدار القديمة الجديدة الصغيرة . أسرع الينا وضربني لأن اخي سقط والذنب ذنبي . كان يحدب عليه . يخشى عليه كل شيء يضربني إذا آذيته أو آذاه أحد . جعلني مسؤولا عنه ، أباً صغيراً له . وبدأنا حياة اخرى. .

أخذنا جميعاً نطفر على التلة . زحف الجدب إلى كل مكان فامتنعت عليه الطفولة . كانت التلال جميعاً جرداء عارية إلا من الشوك الأصفر . بيدرنا كان صغيراً كشوكة وداهمه الدجاج فأوكلني أبي بطرده فأخذت أستيقظ إذا صاح الديك ومعي عصاي الطويلة أذبّ عنه الشره والنقيق .

وذات مساء جاءنا « الدرك » مع الغروب على خيل مطهمة فربطوا جيادهم على البيدر وعلا صراخي . أخذت أضرب بالعصا أراوغهم يطاردونني فأفرّ حتى إذا أقصوني قذفتهم بالحجارة . ظننت أنهم يذهبون بي إلى السجن فلم أخف منهم . خشيت على مؤونة الشتاء . ما كنت أنا الذي يريدون ولا البيدر .

خرج أبي من البيت وصاح بي « كفى ! » فسقطت العصا من يدي وأخذت أرتجف كما كنت أفعل كلما غضب . ونزع الدرك بنادقهم عن اكتافهم . وقفوا نصف دائرة . صوبوها إلى صدره . قذفتهم أيضاً بحجارتي . صاح مرة أخرى : « كفى ! » وصاحوا : « قف ! » فوقف . خيّل لي أنهم ضخام ، منتفخة وجوههم عجفاء . أخذوه معهم .

لم يكن البيدر سخياً ولا المرابون ولا السلطة . كنا نتجمع ، بعض على بعض، ونتساءل أين ذهب ؟ كانوا يحثّونه على السير وهو يأبى حتى

اتزن وقع خطا الخيل على خطوه . لا أظن المسافة كانت بعيدة فما يقدر
الراجل أن يمشي طويلا . . لم لم يعد إذن ؟ كأني به كظم شيئاً حين
ذهب . كأني بشفته ارتجفت حين نظر إليّ وهم يضعون القيد بيده .
وددت لو أرى عينيه . لم أجروء على النظر اليهما . قالت لي أمي أنهما
زرقاوان كسماء صيف . منذئذ أتلهّف للنظر اليهما . هل يمكن أن
تكون العيون زرقاء ، زرقاء بلا ألوان ؟ أكدت لي أمي ذلك فما
صدّقت . لا بد من غيمة في السماء ، من ضبابة شفافة أثيريّة القامة .

كنت أحلم بأن أرى عينيه كلما تطلعت إليهما غضضت بطرفي
خوفاً . كان قاسياً لم يتبدل فيه شيء ، عندما أخذوه لم تتبدل اساريره .
سار أمامهم . كان ضابطاً فيما قبل لم يتخل فيما بعد عن الأمر . خاض
الحرب في المضائق ثم في الصحراء . ظل يخوض حرباً فيما بعد . لم
يتهوروه حين أخذوه . كأن يأمرهم ... وطال غيابه وأنا أسأل أمي
متى أرى عينيه .

ما عاد يجيئنا أحد إلى البيت . في غيابه عشنا في بحبوحة . ظلت
« الخلايا » مليئة بالقمح على صغر البيدر وكنا في شوق مقيم اليه ثم
عاد أخيراً . ذهب متكبراً وعاد متغطرساً . وجاءه المهنئون وأخذ
جنى البيدر يذوب . ركضت إليه كي أرى عينيه وسرعان ما خفضت
نظري . أظن أني لمحت على الزرقة ضبابة . قالت له أمي : كادت
تنتهي مؤونتنا .

— يرزقنا الله يا امرأة !

— من أين ؟

وكرر في صوت أخفض انسرب اليه الشكّ :

— يرزقنا الله يا امرأة .

وكررت أمي : من أين ؟

فصاح غاضباً وعربد فصمتت .

أجهل لماذا نام أبي ساعتها قبل القيلولة . كان يتناول غداءه ثم ينام .
لماذا بدّل ذلك اليوم طقوس حياته ؟ ألم يعجبه الأكل ؟ عهدي به يحب
البرغل واللبن الرائب كثيراً وكان يحب ما تطهوه أمي حتى لو كان
بيضاً مسلوقاً يدل على اصدقائه بكبتها وهريستها يتلمظ إذا قدمت له
صحناً من المحشي .

وضعت أمي طبق القشّ وفوقه البرغل واللبن وأمسك كل منا
بملعقة . اعتدنا أن نأكل في غرفتنا . لماذا وضعت الأكل في غرفته
وهو فوق ذلك نائم ؟ كان التبدل غريباً كأن الضابط القديم بدّل
مواقعه أعاد تنظيم قطعته على شكل آخر ، لنوع جديد من المعركة .
تشم في الجواء رائحة الهزيمة .

كان جامداً على سريره العتيق يتأمل في حلمه خطوط العدو وخطة
التراجع ، لا يتحرك أبداً ، لا نسمع رجع أنفاسه كأنه يحرص على ألاّ
يبدّد قواه ، صلباً مشدوداً على نفسه كخشبة صليب وحطّت ذبابة
على اصبع قدمه الكبرى فحركها فطارت .

كان جسده يبدو مشدوداً بحبال إلى سريره . قدمه وحدها حرة
تتأهب للفرار .

لم يهزم من قبل . واجه الموت مرات مستهتراً على عنف النسر . في
« جناق قلعة » قتلت شظية أقرب الجنود منه فما تحرك عن موقعه
ومنح وساماً . في الصحراء شد أمير الجيش على يده ورقّاه . عندما أخذه
« الدرك » غلب السلطة على أمرها . كان في سجنه صلباً كحديده صامتاً
لا يتكلم . إذا مسّوه صرّ وصخب كأقفاله . ولكنه أعدّ نفسه على
سريره كي يرفع يديه مستسلماً .

كسرت طرف ملعقتي حتى لا يأكل بها أحد غيري . قبعنا ننتظر

الخبز . نهمس همساً كي لا نوقظه خشية أن يثور إذا فعلنا .

جلست أمي معنا . أخذت العجوز التي كانت صبية حتىئذ تمضغ النكتة بأسنانها الطبيعية تضحك من قعدة أحدنا ، تمازح الآخر ، تمسح وجهه كأنما علقه الغبار قالت : هيا ، كلوا ...

فتلفّت كل منا إلى الآخر قلت « أين الخبز ؟ »

— البرغل يؤكل بلا خبز .

فاعترض أصغرنا وفهمت ان الخوان قد أجدب .

ظلّت تضحك وأنا أحسّ كأن أسنانها تسقط من فمها . قلت في نفسي : عندما أكبر سوف أضع لها أجمل اسنان العالم. لما شببت درت من من طبيب إلى آخر فما نجح أحد بصناعة طقم جيد . كان مزاحها شقياً خلخل توازن الفكين .

قلت : صحيح . معها الحق . يجب أن نتعود أكل البرغل بلا خبز وإلا ترهلت أجسامنا .

لم يكن الخوان خاوياً إلى الحد الذي ظننت . كان ما يزال فيه بعض كسر هينّة سطا عليها أخي محمود . لفّها بطرف ثوبه . يخرجها إذا غفلنا عن يده وفمه . كان أكثرنا حيلة يحبّ اللهو المرّ . كان اكثرنا حبّاً لنا واكثرنا حراناً يطربه ان يراوغ الصغارحتى اذا بكوا عاند ثم ضحك أعطاهم ما يريدون .

قال له الصغير : أنت معك خبز ، أعطني .

لم أكن الوحيد إذن الذي أدرك معنى مزاح الصبية . كنت أضحك إذا داعب محمود الصغار أنتظر نهاية اللعبة . كانت تلك الساعة بخيلة لم تمنحني أية قدرة على الضحك والانتظار . كنت متوتراً حتى أظافري .

قلت له : وزّع الكسر .

قال : لا . أنا الذي وجدتها .

قلت : وزعها وأنا لا أريد . أعط الصغير .

قال : لا ....

نسيت ان ابي يرقد على سرير عوسه الذي حالت بعض الوانه ولكنه بقي متيناً يزهو بأحلى ذكرياته . أمسكت بخناق محمود وضربته فصاح : آخ ...

أنتبهت إلى أن أبي قريب فارتجفت فرقاً والتفتّ ناحيته . كان ما يزال جامداً مغلولا بحبال عاتية . قدمه لا تتحرك رغم سقوط ذبابة أخرى كأنه يغطّ في نوم عميق خدر . حملقت بوجهه . كان متغضناً مقسوراً على الصمت . جفناه كانا يتحركان . لم يكن إذن نائماً وانسربت دمعة وحيدة على خدّه فيها كل بؤس العالم . لقد انهزم أخيراً . سقطت كسرة صغيرة على الأرض فبصقت بوجهها . قالت العجوز « حرام ! » بصقت مرة أخرى قالت : « حرام » . قمت إليها دستها سحقتها بقدمي الصغيرة طحنتها حتى عادت ذرات إلى التراب. وخرجت راكضاً ، جائعاً لا أريد أن أرى أبي ، لا ألوي على شيء ، لا أريد أن أعود اليه حتى وصلت إلى الغدير فوضعت فيه قدميّ حتى المساء .

لم أر غير هذه الدمعة على وجهه . كان بخيل الدمع حتى الشحّ . افترقت عنه إلى الأبد . بات كل منا في دنيا أخرى .

بتّ كائناً جديداً يغسل قدميه حتى المساء أشهق ملء رئتي أعصر أضلاعي كلها حتى تنهزم بدمعة وهي تحرق في القلب تلسع البطين والأذين بشوكها .

كان العالم بالنسبة لي وله كسرة خبز . هو استسلم وأنا ضربت . ما هو هذا العالم الذي صغر حتى كان كسرة ، حتى ضنّ على

الجياع الصغار بكسرة ؟ لم أضرب أخي . ضربت العالم سحقت صورته في روحي ، بصقت بوجهها . شخت ، أصبح عمري ألف عام تبحث عن كسرة لكل الجائعين .

أما هو فقدَ وهنت قواه، عاش تناقض النسر المهزوم . ظل محنقاً كأنّه يدور في فراغ . كلانا كان يدور في فلك له . إثنان ضد العالم لا يلتقيان !

ظلّ محنقاً ساهماً يهمّ بأن يلج باب الحياة ثم يرعوي ، يجهد في أن يعود إلى البشر ثم يرتدّ إلى نفسه يجترّها . ظلّ محنقاً حتى سقط ميتاً بين يديّ ورأيت آنئذ عينيه : زرقاوان كسماء صيف لا غيمة ولا ضبابة ... ظلّ كسرة .

الظل والجدار

ولد الظل والجدار ساعة أشرق الإنسان على الأرض . كانت الدنيا ظلاماً وظلت ظلاماً . سأروي لكم قصة خلق العالم كما شهدت ميلادها.

لم يكن في البدء بدء ولا نهاية، لا عقل ولا جنون، لا حكمة ولا جهل.

كان هنالك حب وكنت وحيداً . دعوني أطبق جفنيّ . أصمتوا قليلا كي أعود إلى وطن الوحدة ، فأرى وراء سجفهما كيف كان التكوين . حفر الوهم في بؤبؤ عيني صورة يضلّ في حسنها التعبير . لا تمدّوا أظافركم المتوحّشة إليها . إذا اقتلعتموها من فؤاد عيني كيف أرى ؟ دعوه يخفق بها ، خلّوا بينه وبين أنينه والنزيف .

لم يكن على ظهر البسيطة شيء ، لا حياة ولا موت . كنت ضالا بلا رب . كنت وحيداً . من أين جئت ؟ لم تلدني أمّ ... جئت قبل الأمهات . لم تستطع امرأة أن تحمل أثقالي تسعة أشهر ... لم أجنّ كجنين ... جنوني أني حدقت إلى التيه حواليّ ومشيت في سراديبه طويلاً .

في اليوم الأول لم يكن هنالك شيء . قيل لي فيما بعد أن الفجر كان قريباً . أتيت في حالكِ ليل أسود . نظرت إلى حالق وأدنى . ظلّ العالم كما كان وطاردني الظل والجدار . ولدا توأمين لا يفترقان . لا قبلي ولا بعدي .

الطفل :

قدمه الصغيرة أصابعها خمس وكذلك الأخرى. وضعت سبابتي على باطن سلامياتها فاتكأت وانحنت تتشبث بها ثم تحركت وعاودت خدرها الوسنان ، والأظافر عيون حائرة صغيرة توصوص من خصاص باب العالم حائرة على أي الدروب تسير واصبعي التي كوّتها الشمس والصقيع تبدّت عليها خطوط عجيبة وعروق زرقاء تنبض على ندى قدم الصغير الرطب. جلده لدن كعشبة ما انشقّ عنها أديم الأرض .

انكفأ نائماً على وجهه فقبلته على قفاه فارتعش ، ثم على وجهه فأعدته ، فبكى في حلمه حتى سكت نومه وفتح كفّه : خطّ الحياة قصير كرعشة . رأيت على راحته الميلاد والموت والقوة والضعف ، الزغب والمشيب ، الوجنة الملساء والتجاعيد . حظ السعد لا وجود له . كان علي أن أرسمه أنا ، أن أبدع قدره : ثروته وشقاءه ، فقره وغناه .

عندما جئت لم يكن هنالك شيء ، لا ماء ولا سماء ، لا حياة ولا سعد : ظلام وبؤس فتعلمت فنّ الألوان اليائسة . هممت أن أزرع في كفه خطوطاً سعيدة تلتقي فيها الحياة بالسعد والأرض بالنجوم ، اردته ملكاً ذا تاج ، أو مبدعاً يمتاح اللون من نبع الأزل فأطبق كفّه على رغبة لي لم تتحقق . تركت أظافره اللدنة تحفر في راحته ملامح قدره .

كان ظلّه يختبئ على يمينه كأنّه صورة عجفاء وعيناه نصف مغمضتين لا يعبس في نومه ولا يقطّب جبينه ، لا تصطكّ اسنانه. يقول إذا صحا : مرّ بي طائف أبيض الجناح ، طائر خفق جناحه كلعبة في دكّان وأعطاني حذاء وحفنة سكر .

زحف ظلّه ورائي ، أخرجني من الغرفة ، طاردني حتّى الرصيف .

شق الطبيب فخذه وهو بين يدي فصاح . لم يحتمل جسمه المخدر.

ذهب المبضع بعيداً ، اقتحم دنيا لم اعهدها ، جبال ووديان وانهار من دم وصديد . أخذت أعلم أن في العالم شيئاً . أن الدم والصديد حقيقة تمسّها بيدك وتراها بعينك ، جداراً يلقي الظل ، لوناً جديداً انسرب إلى سواد يوم الخليقة . لا لم يكن هنالك جديد . الدم الصديدي أسود ، يغوص وراءه المبضع ويد الطبيب قاتلة ، تكرهك على أن تعيش الموت إلى أن تموت .

كانت فخذ الطفل جبالاً ووديانا من صديد ، نتنة ... رائحة تبعث على الدوار ، شبيهة بالتي شممت ساعة جثث العالم ... أشرق الإنسان فسدّ أنفه . تقف على القمة فيجرّك الجرف إليه ثم إلى القاع ، تظنّ أنك تصعد ، ثم تجدك في القاع والصديد وينام الطفل على سرير ويفتح كفه ثم يطوي أصابعه كي يحفر في راحته خطوطاً لقارئ السعد والنحس .

الرصيف :

جئت فلطوت في شعب الجبل ، دسست جسدي كله ، لحمي وعظمي ، عقلي وقلبي ، دفعت بكتفي الصخر والتّراب ، حفرت بأظافري واسناني ، بيدي وقدمي وجراً يؤويني .

كانت الريح عاصفة ، عاتية ، تقتلع الشجر من جذوره ، تذرو صخور الجبل كفقاقيع ، تبعثر الكائنات ، ترميها من قمة إلى قمة ، إلى واد كريش ، تنبش الحياة من الأعماق ، تدوسها حتّى السحق ، تنسف كل وجود .

كانت الريح صرصراً زمهريراً ، تجلد الدم في أوج تموز ، لم تدع للصيف غير إطلالة قصيرة ملأت أعصابي نهماً وظمأ ، ثم عبرت ... لا تصدقوا ما غدا صيف ولا راح ، ولا ربيع .

حفرت بأظافري واسناني حتّى تقطعت وسال الدم والصديد ...

جدار الجبل كان صحراء من صلد ، لم أحفر غير الظلّ ... طردني ظل الطفل إلى الرصيف .

من كان يجلد الرصيف ساعة التكوين ؟ هو الذي جلدني ... أمسك بسوطه وأهوى على القلب فقفزت منه عليه . جلست على حافته ... مددت قدمي متعباً ، لم تصل إلى الأرض .

رحت أهوّم أمام الواجهات . عندما يفيق الطفل من جرحه يبحث عن دمية فلا يجد غير ظلّه ... كسرت جدار الزجاج فخرجت الدمى إلى الرصيف ... ضحكت ضحكاً معتوهاً ... صفّقت طرباً ... ضربت أفخاذها بأكفّها لشدة الضحك ... قفزت ورقصت ... وأطلقت الفتّاش كي ترعب ، شحذت المدى وطعنت كيفما اتفق وعنّ لها ان تلعب كالبشر فمثلت أخطر المسرحيات التي اسمها « الدولة » .

أقامت دكة في ظل الجدار وصعد بعض وظل بعض يشاهد ، يهتف ويصفق وحركتها خيوطٌ خفيّة فغنت ورقصت ومهرت فصل الحريق والدمار والقتل . كان « الفتّاش » يلعلع كأنه رصاص حقيقي وأظن الدم سال فقد وهنت أجساد كثيرة على الرصيف حتّى لتسقط على هبّة هواء ، اسلمها الجوع لعناء الزوال . تتدافع على سبل الخلاص فيدفعها الرصيف على قدم الدكة فتهوي . كان التمثيل رائعاً كأنه طبيعي بلا خيوط .

تربعت الدمى في ردهة كأنها من قصر فقد كان التمويه حاذقاً وحكمت بالعدل فأزهقت الظمأ والجوع ، الظِمأى والجائعين . أقامت خشبة ، شدّت إليها بالحالمين فانكبّوا على وجوههم يقضمـون أديم الأرض يحفرون أعمق كي يزرعوا مأساة الجوع والظمأ ... وصفق المشاهدون وهتفوا ، قاموا عن مقاعدهم وقعدوا ، هتفوا وصاحوا . كان التمثيل رائعاً كأسطورة ... ثم صفرت الريح صفرة لا ترى ولا تسمع فاختفى كل

شيء وعادت الدمى بحللها الفريدة وأوسمتها وأكاليل غارها الى حيث نفرت ... كان الزجاج على حاله كأني لم اكسره بحجر وامتدّ الرصيف ، بتّ وحيداً معه ... وبقي الطفل وظلّه ... ما هذه الدمى التي لا تسعد طفلاً ؟

تبعني الظلّ حتّى باب الكهف . وجدت الدمى قبلي تمارس أروع الطقوس الوثنية . كانت تمتصّ الدم فما ترتوي . والأنياب توغل في شرايين الأمهات تزني بعفافهنّ . وقف أمامي الجدار . ضربته بقبضتي حتّى الصديد . قلت له :

— من أين لك كل هذه الزانيات ؟

— أتيت بالزّناة فاختاروا الأمّهات .

— يشربون الدم !

— نابهم مشحوذ .

— لمَ خلّفتهم ؟

— كنت حاملاً أنا والخيوط . نحن لا نلد غير الدمى .

— وتسميها ولادة !

— من قال أني فعلت ؟

— ألا تسمع الطبول والهتاف والأنين ؟

— لن أسمع !

كان القدّاس عاهراً وحشيّاً كغريزة معتوه وحرمان موتور . مات الطهر خنقاً والدمى تعربد ضحكاً وتصفق . كانت المسرحية رائعة مثل السلطان نفسه فيها دوراً و كذلك الدولة ، غير أن اللعب في الكهف كان جزءاً من الواقع رغم وجود الدّكة .

لا بدّ أن الطفل استفاق على ظلّه بعد أن يئس حلمه من يقظة على دمية . كان الجدار يلقي ظلّه على الرصيف كأنّه قُدّ من معبد .

وراء الجدار سرداب .

من كان يعلم ان الاطفال يولدون للدمار ؟ عندما يشحذ العهر مبضعه ، يلهو الأطفال بظلالهم العجفاء ، يمتلوّون قيحاً وصديداً تسقط اسنانهم وهم يحفرون بأظافرهم الصلد من أجل مأوى ، ييبسون كبوّ ، اذا ربتّ على جلدهم رنّ كصدى جنازة .

جرّني الرصيف إلى عوالم عجيبة . كلانا لا مأوى له ، لا مكان يسند رأسه اليه . طردني الظلّ فطرقت بابه فابتلعني تيهه ومشيت ساهم العينين .

قلت للقابع على مدخل السرداب :

— أين أذهب ؟

قال لي : أنت هنا حرّ ذهبت يميناً أم يساراً . صعدت أم نزلت ، سرت إلى امام ام عدت إلى وراء . كل الطرق واحدة قدّت من نفس الجدار ، من صخرةٍ واحدة يباب . لا تهتم بالألوان : الأصفر والأحمر والأخضر والبرتقالي الأسود والأزرق، كلها طلاء مهما سخوت فأغدقت منها على جلد الحذاء لا تتبدل طبيعته . نصبغ بها الجدران اعتباطاً للتمويه فقط . لا أظنك تجهل ان الجدران مخيفة كعجوز شمطاء نمرّ بالفرشاة على خشونتها حتى تبدو ملساء . أنت هنا كي تضلّ فقط .

قلت : لا عليك ، أنا مصاب بعمه الألوان .

— هذا حسن . أنت الذي أنتظر إذن !

— من أين أبدأ ؟

— من أنت حتى تحكي رواية البدء ؟ ألا تعلم أن لا بدء ولا نهاية ؟ انتظرك منذ اليوم الأول . ولكن لم يكن هنالك يوم أول

— ماذا أفعل اذن ؟

— لا أدري !

— أعود إلى الرصيف .

— ما زلت عليه .

— أخال أني في السرداب .

— لم أقل أنك لست فيه .

— سأذهب يميناً .

قهقه وقال : أحسن أن تصاب أيضاً بعمه الأسماء . حريتك أن تضلّ .

— أذهب إذن يساراً .

قهقه حتى العياء : أنت مقسور على الذهاب . ليس لك أن تختار . أنت في سرداب وهنا لا معنى للأسماء والألوان .

ذهبت مصاباً بعمه الألوان والأسماء أحبو بين الجدران أتحسسها فتدمى أصابعي لم تستر الصور عري إبرها وأشواكها . على كل جدار ثالوث : الآب والابن والروح القدس .

طوبى للفنان النقي القلب عاشق الثواليث والصلبان والحربة .

وقف يحمل الفرشاة يغطسها في برميل ألوانه يطرشها حيث يشاء له الابداع قال لي : أنا خالق الأساطير أذروها حيث تزين لي غرائزي المتوحشة . من قال أن العقل فنان ؟ من لا يأكل لحم الانسان ، من لا يلغ في دمه تميد الأرض تحت قدمه ويخطئه الخلود . أنا اصيل النهم مفترس الشهوات . أسلمت لها ظمأي وجوعي . تلك هي القضية .

— أية قضية ؟

— البناء والهدم ، الثورة والخنوع !

— بناء ماذا ، هدم ماذا ؟ أية ثورة ؟

— بناء خنوع الثائرين وهدم أحلامهم الطائشة ؟

وراء الجدار سرداب .

من كان يعلم ان الاطفال يولدون للدمار ؟ عندما يشحذ العهر مبضعه ، يلهو الأطفال بظلالهم العجفاء ، يمتلوّون قيحاً وصديداً تسقط اسنانهم وهم يحفرون بأظافرهم الصلد من أجل مأوى ، ييبسون كبوّ ، اذا ربتّ على جلدهم رنّ كصدى جنازة .

جرّني الرصيف إلى عوالم عجيبة . كلانا لا مأوى له ، لا مكان يسند رأسه اليه . طردني الظلّ فطرقت بابه فابتلعني تيهه ومشيت ساهم العينين .

قلت للقابع على مدخل السرداب :

— أين أذهب ؟

قال لي : أنت هنا حرّ ذهبت يميناً أم يساراً . صعدت أم نزلت ، سرت إلى امام ام عدت إلى وراء . كل الطرق واحدة قدّت من نفس الجدار ، من صخرةْ واحدة يباب . لا تهتم بالألوان : الأصفر والأحمر والأخضر والبرتقالي الأسود والأزرق، كلها طلاء مهما سخوت فأغدقت منها على جلد الحذاء لا تتبدل طبيعته . نصبغ بها الجدران اعتباطاً للتمويه فقط . لا أظنك تجهل ان الجدران مخيفة كعجوز شمطاء نمرّ بالفرشاة على خشونتها حتّى تبدو ملساء . أنت هنا كي تضلّ فقط .

قلت : لا عليك ، أنا مصاب بعمه الألوان .

— هذا حسن . أنت الذي أنتظر إذن !

— من أين أبدأ ؟

— من أنت حتّى تحكي رواية البدء ؟ ألا تعلم أن لا بدء ولا نهاية ؟ انتظرك منذ اليوم الأول . ولكن لم يكن هنالك يوم أول

— ماذا أفعل اذن ؟

— لا أدري !

— أعود إلى الرصيف .

— ما زلت عليه .

— أخال أني في السرداب .

— لم أقل أنك لست فيه .

— سأذهب يميناً .

قهقه وقال : أحسن أن تصاب أيضاً بعمه الأسماء . حريتك أن تضلّ .

— أذهب إذن يساراً .

قهقه حتّى العياء : أنت مقسور على الذهاب . ليس لك أن تختار . أنت في سرداب وهنا لا معنى للأسماء والألوان .

ذهبت مصاباً بعمه الألوان والأسماء أحبو بين الجدران أتحسسها فتدمى أصابعي لم تستّر الصور عري إبرها وأشواكها . على كل جدار ثالوث : الآب والابن والروح القدس .

طوبى للفنان النقي القلب عاشق الثواليث والصلبان والحربة .

وقف يحمل الفرشاة يغطسها في برميل ألوانه يطرشها حيث يشاء له الابداع قال لي : أنا خالق الأساطير أذروها حيث تزين لي غرائزي المتوحشة . من قال أن العقل فنان ؟ من لا يأكل لحم الانسان ، من لا يلغ في دمه تميد الأرض تحت قدمه ويخطئه الخلود . أنا اصيل النهم مفترس الشهوات . أسلمت لها ظمأي وجوعي . تلك هي القضية .

— أية قضية ؟

— البناء والهدم ، الثورة والخنوع !

— بناء ماذا ، هدم ماذا ؟ أية ثورة ؟

— بناء خنوع الثائرين وهدم أحلامهم الطائشة ؟

— تلك اذن هي القضية ؟

— تلك اذن هي القضية !

— من أتى بك إلى هنا ؟

— جموح النزوة إلى أن أكون . كن أو لا تكن !

— من أنت ؟

— لا تسل عني . أنا فنان تعرفني مما أبدعت . أنا ما ترى على الجدار .

الثالوث الأول :

دق جرس الهاتف . رفعت السماعة طفلة صغيرة أجفلت على صوته . وسن المساء ما زال غافياً على رمش عينيها الواسعتين . تتثاءب كأمنية واهنة . وضعت السماعة على أذنها وسقط شعرها الأسود الطويل على وجهها فاختفت السماعة وراء العوسجة الكثيفة . قيل لها :

— أين أبوك ؟

— ينسج لي اسطورة .

— ليس هذا زمن الأناشيد .

— لا أنام إذا لم يغنّ !

— قدر الأطفال يقظة لا تهجع .

— على ماذا ؟

— على الصديد !

— رائحته قاتلة .

— سدي أنفك ، أغمضي عينيك ، ضعي وقراً في أذنيك .

— كيف أشم ، كيف اسمع. كيف أرى ؟

— سدي أنفك ، أغمضي عينيك ، ضعي في أذنيك وقراً .

ولفها الدوار فلا تسمع ولا ترى . قبعت في الظل حدّ الجدار

وراحت تهذي الأذنان والعينان والعقل فصلبها مبدع الغريزة في صورة على جدار . بين اثنتين لم تسرقا ولم تقتلا .

قلت له : من هذا الثالوث البريء ؟

قال : ليس بريئاً من يولد . إنها دعارة الوجود .

وضعت السبابة في باطن أصابع القدم فتحركت واتكأت عليها ، تشبثت بها وحملقت عيون أظافرها صلاة تهذي وتجهش بالنزيف .

قلت له : تعال ننز لها .

قال : ما أفعل بالخشبة والمسمار ؟

— أين حربتك ؟

فصاح : أيها الأعمى ألا ترى ، إنها في عصا الفرشاة واستلّها فارتجفت الصغيرة وصاحت الأختان . وقفت بينهن وبينه .

قال : كنت أمزح .

وعاد إلى برميله يرشق ألوانه .

الثالوث الثاني :

كيف استطاع أن يصلب الأقوياء ؟ لا بد انه فنان عجيب .

صورة كأنها الحقيقة . نافرة ، تجس النبض فتظنه يرعش لولا انه خفي واهن كأنه نام .

قلت له : من هذا الذي يمسك بقبضة المحراث ؟

— كان بائساً وفقيراً . رفعته من الحضيض إلى الجدار . كان ضالا فاهتدى على المسمار والخشبة . يا له رائعاً كشهيد !

— أليس هذا هو الذي كان يُجلد ؟

— بلى كان بلاأرض ولا ماشية .

— امنحه ما دامت يدك سمحاً وقلبك كريماً .

— غاض الماء وماتت الخراف . مزجت بما بقي ألواني وأكلت .

كنت جائعاً ولكن ألا ترى كيف علا . يكاد يطير بلا جناح .

– وحامل المعول ؟

– فقر الدم والسل ... جئت به أشفيه .

– دمه على شفتك ... تمتاح ألوانك من سله .

– ملأ الليل عويلا .

– والنهار ، النهار والليل... الليل والليل... مالنا وللنهار .

– انظر كيف أجعل وجنته وردية .

وغمس الفرشاة في برميله ودار على عقبيه وطرش فاذا القلب أحمر والوجنة ذاوية .

– وهذا ، أنظر ، كان حافياً فألبسته جزمة وقلت له دس ، فدعس . لم يتعوّد غواياتي . عنيد . أدير وجهه إلى الجدار لانه مخيف فيرتد ويحدق إلي . لا أريد أن أرى غير ظهره .

– دعه لجنونه .

– لا تحمل الأرض معتوهين ! حكمة الجدران أن يسود مجنون الآخر فيدير هذا ظهره . جنونه حرية !

الثالوث الثالث :

– هنا نطوف بالنجوم ، نقبض على المجرّة بأصابعنا ، نركب متن الغيوم ، نرقى إلى السماوات ، رحيق الهي ، أدلّ به على ما ابدع البشر والآلهة . كان حلم الأزل ، لا نهائياً . كل حروفه خلود . صلبه معجزة . ألا ترى على وجهي سيماء المعجزات ؟

وقفت على هذا الجدار بعض حياتي الثرّ ، بعضها الكليّ . عزمت على ان أملأه بشيء عظيم ، لا قبله قبل ولا بعده بعد . أغمضت عيني وتركت القدر يسعى بيدي، نبشت كل ما دفنه العالم في أحشائه . صليب هذا الجدار أروع من ان اسلمه للعادي المألوف .

– لا ارى ثلاثة بل واحداً .

– ثلاثة في واحد ... أنا فيلسوف أيضاً .

– من أين لك كل هذا العلم ؟

– انها الغرائز المتوحشة . صوفية الحقد .

– أرى كلمة لا صورة .

– في البدء كان الكلمة .

– أية كلمة ؟

– في البدء كانت الحرية .

الله :

دعوني أطبق جفني . أصمتوا قليلا ، كي أعود إلى وطن الوحدة فأرى وراء سجفهما كيف كان التكوين . حفر الوهم في بؤبؤ عيني صورة يضل في حسنها التعبير . لا تمدوا أظافركم المتوحشة اليها . اذا اقتلعتموها من فؤاد عيني كيف أرى ؟

لم يكن على ظهر البسيطة شيء ، لا حياة ولا موت . كنت ضالا بلا رب ، كنت حراً ، أحفر الصلد بأظافري حتى الصديد . دعوني أحفر حتى الصديد . دعوني أقضم الأرض موتور النهم ، محروق الأصابع والعين والقلب ، دعوني أدمر ذاتي أقتلعها من جحيم التردد والخوف . أريد أن افتت شفتيّ بالتراب .

حين جئت كان العالم خالياً يباباً ، جئته عاشقاً أحرس شجرة الحب ، أحميها بجفني خشية ان تذروها الريح . كنت عبيّا فطاردني الظلّ والجدار يقسران الصمت على البوح . فئت إلى كل أصقاع النور . سبقني اليها الصقيع والزمهرير .

من ابدعني فسفاني كغبار فأعياني ؟

من سوّاني على غير ما أراد وأريد ؟

ـ أنت كافر !
ـ انا وحيد !

ـ أنت ما آمنت !
ـ أنا ظننت !
ـ أنت ملحد !
ـ أنا آمنت ولكني وحيد ... وحيد حتى يأس الظلمة .

حين جئت العالم ، جُررت فركعت ، ثم وجدتني مسمّراً على جدار وظلي عالم بائس ، أصابع قدم خمس تتشبث بسبابتي ، تتكىء عليها ، فشددت حتى العويل ، ذرفت الأظافر الصديد في كفي ، قذفتني إلى الرصيف وعلى راحتي ليل اسود . كانت الدنيا ظلاماً وظلّت ظلاماً . انه البدء . ساعة يشرق الإنسان على الأرض .

ولدت معلقا

مرت اربع سنوات على زواج امي . لم تنجب فيها . صلت كثيراً . فقدت جدتي الأمل في ان يكون لها حفيد يرث بستاننا الصغير فعاودت من جديد بحثها عن عروس لابنها وغارت امي فلم تبد ما تكتم، اصطنعت الصبر . ولكن صلواتها اتسمت بالق حانق على ما لا تدرك ، خائف من انتقام الله ،زهت مرارتها بأدعية ليست من الارض ، عابقة باحتراق العشاق أمام الذات الالهية . أخذت ترى ما لا يراه الآخرون . تعيش مع الأفلاك ، تلمس خفق قلوبها .

كانت تقارن جدتي بين من تختار خديجة أم عائشة أم تميمة ؟ .. فاستجارت امي بقبة السماء في اليوم، في الساعة، في الثانية التي تستجيب فيها السماء كل عام مرة ، مرة وحيدة .

قالت للرب الهها : امنحني ابناً ولادته عسيرة . ينزل على قدميه . اجعله شيئاً نادراً .

وهكذا جئت على قدمي . لم تطأ الارض ، ولم تطل يدي النجوم . بقيت معلقاً ، مشدوداً إلى الفضاء والفراغ فوق الارض ، تحت السماء ، في المكان المجدب بينهما ، لم أرث البستان فهو لمن يزرع ويحصد وانا ابذر فقط من مكان قصي اهوج الريح ، تلتهم انواؤه كل ما يهم بان يحيا ، يقذف بالبذرة والجذر إلى حيث لا زرع ولا حصاد .

ولكني مشوق للأرض . احبها . لكم أتوق إلى ان امرغ خدي
على ترابها مهما كان موحلا . يغريني الوحل كقصيدة مصفدة
في اغلال اليأس .

لما جئت المدينة عشت في الجامع شهراً بلا صلاة ... كي أنام فقط .
يؤويني المؤذن بعد صلاة العشاء ، يوقظني قبل صلاة الفجر . أضل
ما بينهما في شعاب المدينة أبحث عن نفسي وعن الوحل .

جئت من القرية بألف قصيدة وثنية ، بألف قصة عن البيدر والنجوم .
نهما إلى مباذل المدينة . كان البشر نياماً لم يتنبهوا ليقظتي . وأخذت
أسرد أساطير جنيات البحر على الرصيف فالتهمت اعصابي حجارته
العمياء . أخذت أبحث عن عينين فما وجدت احداً على الرصيف
فتبعته فامتد امامي وورائي كصحراء من يأس نقشها الوهم في عالم
الحقيقة فأصبحت واقعاً أهيم على صفحته البخيلة .

قال لي : من أنت ؟

حرت فيم أقول . لو علمت من انا ما جئت . كنت بقيت في
القرية أزرع البستان غير ان القصة بحاجة لتوقيع يذيلها ، مسؤوليتها على
عاتقي ، كل عهرها ، تحدثت فيها عن العصر . شبهت الانسان بنبي
مصلوب. نسيت فقط ان أقول ان العصر بغي، ولكن رئيس التحرير
حدس ما خبأت في طيات نفسي وما بين السطور .

قلت : لو اني أنا ما جئت اليك ، جاءك انا الاخر ، ذاتي الجائعة ،
بهمي المقسور على الظمأ . جئتك متسربلا بالفاقة والنعاس استاف
احزان العالم جميعاً حتى ما ينطبق جفناي . جئتك انزف دمي وطاقتي
على الحياة . لم يبق لدي الا الرحيل . دلني على دروبه . لا أريد منك
ثمناً آخر .

قال لي : نبيك جميل ، لوحة من القرون البائدة . لو كنا من

فرسان التاريخ كنا علقناه معاً .

— علقني انا ... من أجل ذلك اتيت اليك ... نسيت خشبي
على باب المسجد الجامع . كان المؤذن نائماً لما أيقظني . تركته للوسن
يجمجم صلوات بريئة . دفعني حنانه عن ان احملها اليك .

— اطرق باب الماخورة . موعدنا هناك .

— الشعاب اليها عديدة . اجهدني المسير .

— سر على قدمي الاخر .

— جئتك على قدميه لاني كسيح الا ترى ابتسامتي ؟ انها ايضاً
بلا قدمين . بين قلبي وشفتي مفازات محرقة، رمال وجبال وشقاء ،
يحبو البؤس في بيدائها منذ ولدت ولكنه بعيد بعيد ، ما زال في
الأعماق . ضل طريقه إلى فمي ، اغوته الاغوار السحيقة .

— ليست بعيدة إلى الحد الذي تظن . اذهب اليها انا كل مساء
حتى لكأني أقطن بها .

— وحدك ؟

— نذهب جميعاً .

— تذهبون فلا يبقى احد على الشعاب ؟

— تظل انت وحدك .

— كيف أمارس لذاتكم ؟

— رفضك القطيع .

— أنا رفضته .

— لست منه .

— ولدت على قدمي معلقاً .

— يجب ان تولد مرة اخرى .

— أين ؟

— حيث لا تبدع النور ولا الشهادة ، حيث لا قمر ولا شمس ، لا سماء ولا بحر .

قلت لك اذهب إلى الماخورة ، اتبع اقصر السبل . انا موقن انك لن تضل . لا حاجة بك إلى دليل . تأخذك الطريق من يمينك ، تجرك جراً . تجري بك فتجري معها .

أدفع لك على الباب ثمن نبيك نوقد معاً شموعنا . نعيش حياتنا كأننا في مغارة سحرة . نضحك معاً فترقص العاهرات .

— أرى أجسادهن كما أراك ؟

— حتى تشبع اظافرك .

— ويذهب جوعي ؟

— ظمأك ايضاً .

— وتشع الشمس ؟

— ارى انك لن تذهب .

— أريد ان اوافيكم . لم تسخر مني ؟

— أسخر من الشمس . الظلمة ابدية والشمس تتجدد كل يوم .

— ولكني احب القطيع .

— حبك يقصيك عنه .

— حزمت امري على ان اكون منه . طلبت اليك ان تنشر لي قصة النبي كي اتخلص من حروفها . اخرجتني من البستان ، كاد يرثه الرعاع . كانت تهمهم في احشائي تنتفض كجنين . لم أطق عناء هذا الحمل فجئت اليك بكل حروفها لعلها تصاب بدوار الحبر والمطبعة فترتمي كخرقة سكري بين اقدام هواة الكلمات المتقاطعة . خذها عني . أنا جائع أبحث عن غذاء . كاد ينصرم النهار . لا تطل علي اكاد اهوي جوعاً .

لم أكن على كل هذا الجوع . شوقي لخواء الرصيف دفعني للمبالغة وما ان احتواني حتى جعت فلم أجد رغيفاً في صحرائه . اعطيته يميني وجرينا معاً . كان حثيث الخطو على غير عهدي به . نركض كأننا نلهو ، كان يلهو بي فقد وجد اخيراً اني تحررت من غباء النبي وهممت باللحاق بالقطيع . كانت لهفتي لوحله وجداً .

فتح الباب الصغير الذي يرتاح لديه الرصيف من لهاثه . لم يكن هناك أحد . قبعنا معاً على العتبة حتى جردنا الحنين من احلامنا . كانوا يدخلون ويختفون وأنا معلق . قالت لي من الداخل .

— أنت وارث البستان ؟

— بل انا الذي بعثرته .

— انه هنا على الأرض . قبلني تطأها قدمك .

هممت بالدخول . اغلق الباب . حار الرصيف . ظللت معلقاً .

الحذاء المثقوب

احب قصصي الي كتبتها سنة ١٩٣٦ . نشرت سنة ١٩٥٩ بعد ان ادخلت عليها تصحيحات افسدتها وما عدت اعرف اين الاصل الطفل . اظنها من اول ما كتبت .

اردت ان اعيد صياغتها قبل نشرها الا ن ولكني آثرت ان يظل فيها قبس من ذلك المبتدئ الذي كنته .

اقراها فازداد لها حباً . ضعفها نفسه قريب الى قلبي .

عندما نشرت للمرة الاولى عانيت وانا ارفع كلمة او اضع اخرى.

اما الان فلا جرأة لي على المساس بها .

منذ ايام استيقظت في أعماقه ليلة ، شردت في ماضيه ، وتاهت في دروب حياته الوعرة ولكنها تلح عليه الآن ، كأنه يعيشها الساعة ، جهد طويلا ان ينسى فما وجد إلى ذلك سبيلا ، وكيف ينسى حوادثه الصغيرة التي حفرت حدود شخصيته ، وخلقت حبه وحقده .

استطاع بعد جهد ان يحصل على بطاقة حفلة ساهرة ، تغني فيها مطربة شهيرة ، وحبيبته هناك تنتظره ... جاء متأخراً والطريق قفر ، غير شاب وقف قريباً من الباب يتكىء على الجدار ، وقد عقد قدماً على اخرى ، كما فعل هو عندما انقطع المطر .... اقترب منه قائلا : « أمعك عود ثقاب » ؟

ـ لا .

ـ لم لا تدخل ؟

فتطلع اليه الشاب ، وهز كتفيه ، ثم غادر مكانه وطواه الطريق .

بعد قليل حاول الدخول ، فلم يستطع ، ومزق البطاقة . وقف مكان الشاب ، فأخذت القطعة السميكة من جلد قدمه تئن كما فعلت عندما اكتشف سره .

حبيبته في الداخل تنتظره ، وهو يتحرق شوقاً إلى ان يرفل بنعيم نظراتها ، ولكن القطعة السميكة ، القطعة التي وسمت حياته بطابع لا يزول دفعته عن احب ما لديه. لقد داهمه سواد الماضي ومرارته وحرمانه دفعة واحدة ... كانت الالحان تصل اليه بلهاء ، قاتمة ، ولكنه لا يريم مكانه كأنه يريد ان يستمتع بالعذاب القديم .

عاد إلى الأمس البعيد .. كانت السماء تهطل رذاذاً خفيفاً ، والشمس تلتمع ، وقد بللها المطر . شمس اواخر شباط واوائل آذار تضحك قليلا ثم تمر غيمة عجلى ، فتغطي وجهها ، ثم ترفع حجابها ، لتغمز قليلا بعينها كأنها جنية خرجت من اليم ... وهو في الممشى الطويل الممتد بين الصفوف ، يقف احياناً قبالة الدرج كي يشاهد الطلاب في مرحهم وقفزهم او يجلس إلى النافذة التي تطل على الطريق ورفاقه يتساءلون ويتناقشون في أمره : منهم من ظن انه يحب الوحدة ومنهم من اكد انه يتصنعها ، وقليل منهم فطن إلى ان سبب عزوفه عن رفاقه وجلوسه إلى النافذة ، هو ابنة الجيران .

نعم كان لكآبته وبعده عن رفاقه سر ، ولكنه لا هذا ولا ذاك ، سر لا يجروء على البوح به لاحد لان اقل اشارة له تجرح كبرياءه . كتب لابيه يحدثه عنه منذ شهر ، ولم يصله الجواب ، مع انه الوقت المناسب لارسال الدراهم : انه على يقين ان بقرته (نجومه) قد ولدت

وان اباه يبيع من لبنها ، لقد حسب شهور حملها على اصابعه اكثر من مرة ، والدجاج يملأ الزريبة بيضاً في شباط .. لماذا تأخر ابوه ... ترى هل جد جديد بالبيت؟

كان اساتذته يمقتون تعاليه وتحديه ومظهره المتعجرف الذي لا يجدون له مبرراً ... كان لا يجيب الا اذا سئل ، لا يرفع اصبعه إذا ازدحمت الاصابع فيسأله الاستاذ : اتعرف الجواب ؟ كان دائماً يقول نعم ..

— لم لا ترفع اصبعك ؟

— لان السؤال بسيط والجواب أبسط .

كان يتلذذ بالعقاب لانه دليل على انه موضع اهتمام الاستاذ . ويحار الاساتذة في تعليل ذلك منهم من رده إلى الكبت ، ومنهم من رده إلى الذكاء الخارق ، ولكنه لا هذا ولا ذاك وانما ثقب في حذاء قدمه اليسرى .

لقد مرت سنون طويلة منذئذ ، وهو يتساءل بينه وبين نفسه : ترى لماذا كانت تثقب فردة الحذاء اليسرى قبل اليمين ، اليس العكس اقرب إلى طبيعة الامور ؟

كان مظهر الحذاء الخارجي عادياً لا جديداً ولا قديماً لانه يصبغه كل شهر مرة تقريباً ، ويظل اللون عالقاً به لانه لا يجازف بالسير تحت المطر ، وليس من اجل الصباغ ، وانما خشية ان تدخل الماء إلى قدمه .. لقد جازف مرة واحدة فقاسى من آلام بطنه الكثير .. كان لا ينام الا بعد رفاقه ، ويستيقظ قبلهم ليحتذيه ، ويخشى أن يضعه في الممر الضيق ما بين السريرين فقد يستيقظ جاره ، وقد تصطدم به قدمه اذا قام لبعض شأنه فتنقلب الفردة اليسرى ويظهر سر نصف النعل ، وقد تثقبت وظهرت للحذاء عين جاحظة وقحة .. كان لا يهتم

باليمنى ، وانما يدسها تحت السرير زيادة بالحيطة ، ولهذه الأسباب حافظ الحذاء على مظهر خارجي لا بأس به .

توقف المطر قليلا ، وسالت مياه المزاريب على ارض المدرسة ... وقف قبالة الدرج ... كانت الشمس تضحك له ، وهو يحب الشمس ، فدلف إلى الساحة ، ووقف حد الجدار متكئاً على الحاجز الحديدي . انه حتى الآن يحقد على نفسه لانه ترك النافذة ، اما كان أجدر به ان يبقى حيث كان ؟ كانت دعوة الشمس أقوى من حذره ... وقف حد الجدار ولف قدماً حول قدم كي يرفع اليسرى قليلا إلى الأعلى فلا تبتل ولا تدخل الماء إلى قدمه وهكذا يضمن لنفسه تأمل الشمس وبقاء سره سراً ، ووقف معه رفيقان . قال احدهما وهو يغمز بعينه « اراك برحت النافذة ! » فتضاحك معه ليوهمه ان قصة الفتاة الشقراء صحيحة ، رغم انه لم يكن يجروء أن يتطلع إلى اية فتاة ، كان يقول بسره : « ابناء الحرمان لا يجوز لهم الحب . » وطال الحديث .. وفجأة حدث ما لم ينتظره ...

انه حتى الآن يجهل كيف اكتشف احد صديقيه سره .. هل كانت صدفة ؟ محال ! ان الصدفة بريئة ، وحركة رفيقه كانت لئيمة حتى الجنون ... كيف استطاع ان يرى الثقب مع ان ارتفاع قدمه لم يتجاوز اصبعين .. نعم اصبعين لا ثلاثة ... لقد تساءل طوال تلك الليلة ، وما زال يتساءل فما يهتدي .كان الذي اكتشفه يحمل مظلة ادخل رأسها الحديدي في العين الوقحة .. كان الحديد بارداً بروداً عجيباً احسّ لذعه في شرايين قلبه .. لقد سكن الجليد اوصاله منذئذ .. كلما مرت القصة بذهنه وضع يده على قلبه مخافة ان يميته الصقيع ، ونضح عرق بارد من جسده تماماً كما حدث له ساعتئذ .

كان في قدمه امام الثقب دائرة مشرشرة ، قسا جلدها كركبة

البعير ، لا تحس ، أما في تلك اللحظة فقد كانت كتلة اعصاب تتوجع . لو اصاب الحديد عينه لما احس بمثل هذا الألم .. ومع ذلك ضحك مع رفيقه .. ضحك من شفتيه ، واخذ يهذي .. كان يود أن يقول له : « لا تقل لأحد » وكيف يقول ؟ ودق الجرس .

ود ان يتمسك به ودفعه الخجل والحيرة عن ان يفعل .. جلس حدّه في الدرس ، وبالغ ، وهو الشرس بالتلطف معه رغم القشعريرة التي تسري في جسده ... ساعده في حل تمارين الرياضيات وقرر ان يساعده في كل وظائفه ودروسه .

كان بالنسبة له الانسان الذي يمسك بخيوط غروره يحطمه متى شاء .. ومضت السنون وتخرجا ، وهو كلما رآه يحس بذات القشعريرة ، وتحول القطعة السميكة كتلة اعصاب تتألم .

ما أشبه الليلة بليلة الأمس البعيد ، عندما صعد إلى المهجع ودس الحذاء في مكانه وهو منهار ؛ وتسمرت عيناه بالسقف على صور ثلاث : عين وقحة تبصق بوجهه ، وقطعة جلد سميكة كركبة البعير ، يقترب منها بتؤدة رأس مظلة حديدي يخزها فتقيء صديداً .

تلك الليلة لم ينم لان قدمه اليسرى ظلت تبكي حتى الصباح .

الملاكم

قال لي المدرّب وهو يشدّ الرباط على قبضتي : « انتبه ! يجب ان تكون المباراة الأولى رائعة . أنا واثق من نجاحك ولكني أريد أن تفتن الجمهور بفنك . أنت جديد وهو يكره الجديد إلا اذا سيطر عليه منذ اللكمة الأولى . يفضل الوجوه المألوفة لديه . لقد انقسم المشاهدون شيعاً ، لكل ملاكم حزبه . أنت تدخل الحلقة بلا حزب لا تخش اذا صفّروا لك . حافظ على هدوئك فهو ينقلب سريعاً — مع القويّ . ان غلطة واحدة تذهب بكل ما عولت عليك من أمل . خصمك قوي ، مدرّب ، شرس ولكنك أقوى منه وأخف حركة. وهو يدخّن » . كان دوري الثاني في الصعود إلى الحلقة . والزوج الرئيسي يلعب بعد أن أغلب أو انتصر . كنت مشوقاً لرؤية المباراة الرئيسية فقد سمعت ما يثير عن الخصمين ورأيتهما في ساعات التدريب . عندما يضرب أحدهما الكيس تظنّ أن الفلاحين يضربون كومة الذرة بعصى كبيرة .

علا التصفيق في القاعة . قال لي المدرب : « اسمع . يبدو ان احد الخصمين يبرع في اللعب . أنت لا تعرف بعد نشوة الملاكم عندما يصفق له الجمهور . أنا مطمئن إلى أنهم سيصفقون لك طويلا . أذكر وانت في الحلقة أن الحركة السريعة الواثقة هي التي تربح . لا تنس

أن الكمة القوية هي التي تستفيد من حركة الجسم كلّه ومن ضعف التوازن عند الخصم . الملاكم الجيد هو الذي يعرف ضعف الآخر . خصمك أقصر منك قليلا ، يده أقصر من يدك . يسراه أقوى من يسراك، أما عن يمينك فلا مقارنة بين الاثنتين . انتبه لأنفك فهو يعرف أنه نقطة ضعفك الوحيدة . كل الملاكمين يتحدثون عن رفضك « فعسه » .

قبل ان يتم حديثه دخل من يقول : « هيا جاء دورك أنت . »

قال المدرب : « لم تنته الجولة الثانية بعد . »

— غلب جورج بالضربة القاضية ...

قال لي المدرب : « هيا يا أحمد . »

أحسست برعشة خائفة . خرجنا معاً . كان جورج محمولا يهذي بصوت منخفض متقطع . يعمل أجيراً حذاء . يربح بين حين وآخر من قبضته عشاء جيداً وسهرة في السينما عندما ينتصر أما عندما ينهزم فيقبض نصف أجر الغالب يدفعه للطبيب ويجمع له الملاكمون ثمن الدواء .

في المباراة السابقة كان غالباً وسقطت ثنيته بلكمة . كان يصفر وهو يهذي .

عندما صعدت الحلقة لم ينتبه المشاهدون لأمري .كانوا في هرج يتحدثون عن المباراة السابقة . قمت بالحركات التي يقوم بها الملاكمون في الزاوية ، تعلقت بالحبال وحركت رجلي بقفزات قليلة ثم جلست على المقعد وأخذ المدرب يدلك عضلات يدي .

كانت القاعة ملأى : خمسمائة مشاهد على الأقل . أخذت أحسب كم يربح منظم المباراة . كان شيئاً ضخماً بالنسبة للخمس ليرات التي يقبضها المنتصر ، والليرتين ونصف اللتين يقبضهما المغلوب . كان ثمن بطاقة الدخول يتراوح بين ربع ليرة وسبعة فرنكات .

صعد الملاكم الآخر كأنه زعيم سياسي يهز بكلتا يديه ينفخ صدره يقفز قفزاً وأمسك بالحبال . كانت حركته لدنة سريعة . وجلس على كرسيه . ياللعجب ! كم يشبه شيخ شباب حارتنا لولا انه أفطس . ونسيت نصائح مدربي دفعه واحدة وجاءتني دروس شيخ الشباب

عندما يصطدم الجمعان يجب عليك أن تضرب سريعاً بالمقلاع . احتفظ بأكثر ما يمكن من حجارة في جيوبك كي لا تلتقط من الأرض . إذا اضطررت لذلك التقط الحجر من الأرض وعينك على الأعداء . متى غفلت عنهم أصابتك حجارتهم . كن دائماً أمام الآخرين . عيب أن تكون في المؤخرة . والعدو يخاف الشجاع ، إذا صوب حجارته اليه ارتجفت يده . اجعل بينك وبين رفاقك مسافة . الحجارة تصيب القطيع الخائف المتجمع على بعضه . إياك أن تبقى في مكانك . اضرب وانتقل لولبياً . المراوغة تنجيك في (الكون) » .

جلسة خصمي كانت شبيهة بجلسة شيخ الشباب على فرسه . أشقر مثله :

« عندما يلحق بك الخصم في ميدان الطراد، مل بالحصان قليلا وبجسمك كثيراً فلا تطالك عصاه أو سوطه . عندما يحاذيك اقفز على الأرض وعد بخفة إلى ظهر الحصان — حتى إذا فغرت فمي مستغرباً أضاف : ليس أسهل من ذلك . سرعة الحصان هي التي تساعدك . إياك حينئذ ان تشد بقبضتك على رقبته وظهره وانت تقفز . تفقد التوازن . يحس الحصان بخوفك . يرميك أو تلتوي يدك . ضع يدك على جسمه كأنك تلامسه فقط . »

كان مدربه ينظر إلي وهو يحدثه همساً . فهمت ما يقوله له . لا بد وانه ينصحه بالأنف . كأني به يقول له : وجه قبضتك إلى أنفه .

قال لي مدربي : لا أظن أن الصاعدة تفيد معه فهو أقصر منك

ومن الصعب أن تطال ذقنه. عليك بضربات تقاطعية أما المستقيمة باليمين
فخبئها للضربة القاضية .

كأنه شيخ شباب حارتنا لولا أن ذلك عنجهي الكبر ليس على
شيء من رعاعية هذا . ذاك يصغي اليك بكبر نبيل ،لا يقاطعك، هادىء .
أما هذا فهو متوتر يكثر من هز رأسه ، يشير بيسراه للمدرب : أن
كفى ! فهمت . الأمر سهل !

آذن الحكم بالبدء . قمنا اليه . وجه النصائح اللازمة . رمى قطعة
عملة في الهواء كان النقش في صالح صاحبي فانتقى أفضل القفازات .
ورنّ جرس الحكم المساعد . وضجّت القاعة بالتصفيق لخصمي :
« كسر راسو يا عيسى ... كسر راسو يا عيسى . »

واندفع نحوي بخفة ذئب . كأني به يريد ان ينهي المباراة في ثوان .
رغت ودرت فوجد نفسه وحيداً أمام الحبال وأنا وراءه . ما أشبه
نقرته بنقرة شيخ شبابنا . عندما هاجمني لم يكن رعاعياً . كان نصف
فارس . ضحكت له وذهب عني خوفي . أحسست أني خفيف
وتحركت قدماي بحرية . كانتا متقلصتين ترتجفان .

دار على عقبيه . صمتت القاعة صمت موت . وقف قليلا واندفع
مرة اخرى وضرب على القلب . وانزلقت يده في الفراغ وأنا على
يساره ووجهه سائب . لم أضربه ابتعدت عنه قليلا . جاءني هذه المرة
مستأنياً متربصاً يهوّم بيديه أمام وجهي وضجت القاعة مرة اخرى :
« كسر راسو يا عيسى . » وضرب الفك باليسرى ضربات خفيفة
كانت تنزلق على قفازي اليمين . ثم هوى باليمين فجاءت أيضاً في
الفراغ وانحرفت عنه بعيداً . كان كمن يقاتل الظلّ . أخذ يدور وأنا
أراوغه والمدرب يخبط بيده على الخشب ثائراً فقد ضيّعت فرصاً ثمينة .
ما كان يعلم أني قررت أن أقبض ليرتين ونصف فقط فهو أكثر مني

حاجة .

قد لا يعلم المدرب أن الموسم كان جيداً وأني لو لم التق بسونيا لما
لما صعدت الحلقة . كنت أشهد مباراة كرة قدم وجرح حارس المرمى
فألبسوني ثيابه ولعبت . وصلت إلى المدرسة متأخراً فرفض الآذن
دخولي وكذلك الناظر عقاباً وذهبت إلى البار لأول مرة فجلست معي .
عرفت أني مغفل دون تجربة وشربت كأسين فلم يبق معي غير أجرة
الفندق الرخيص . وعدت إلى المدرسة صباحاً وقد صممت على أن
اربح ما يكفيني لآخر الشهر . كان اليوم العشرين منه .

أخذ يطاردني على الحلقة ويضرب في الفراغ وهتاف « كسر راسو
يا عيسى ! .. » يملأ القاعة . ورن الجرس . انتهت الجولة الأولى .

قال لي المدرب : لم أفهم . هل أنت خائف . كان بوسعك أن
تقضي عليه .

أخذت أضحك فثار . كان مدربه يحرك يديه وهو يتكلم
عصبيّ الوجه .

بدأت الجولة الثانية هادئة . حركت يسراي قريباً من وجهه كي
يرضى مدربيّ ولكني لم ألامس وجهه إلا لماماً فصفق لي بعض المشاهدين
ثم درت حوله وابتعدت عنه فاندفع يضرب ساخطاً كأن كرامته جرحت.
كان يريد التصفيق وقفاً عليه . قصر يده لم يمكنه من وجهي . أخذ
يلاحقني كذئب مجروح يخفي لهاثه وانتهت الجولة الثانية .

قام للثالثة حانقاً كاسراً . أظنه بدل أسلوبه . حاول جولتين أن
يصيب الأنف فما نجح . ووجه يسراه إلى جبيني فارتج الرأس . كانت
غلطة المدرب لا غلطتي . ألم يقل لي انه أقصر مني وأن يده لا تطال
جبيني . كنت منحنياً إلى أمام . ذلك هو الوضع الطبيعي للملاكم .

ارتجت صورته في عيني . كان يزم شفتيه بقسوة . ابتعدت عنه

شددت بفكي إلى الأسفل كي يذهب الدوار. وتنفست، ورددت القاعة « كسر راسو يا عيسى.» لم يكن يشبه شيخ الشباب أبداً . اندفع مرة أخرى . رغت ودرت حوله أنا والدوار . صداع مفاجىء ألم بي . أخذت يداي تتحركان كأني أمام الكيس ، كأنه شيء من الأشياء لا يحس ولا يرى . تراجع إلى الوراء وهو يلهث وضربني ولكن يده لم تطلني ولم تطل الفراغ . كانت قصيرة لا تتجاوز إلا قليلا جسمه وراحت يسراي تدق الكيس كقروي يفرط عرانيس الذرة بعصاه . تراخت يدا الكيس وتدلى رأسه قليلا إلى أمام . نسيت نصائح المدرب وارتفعت اليمنى صاعدة إلى ذقنه فهوى عند قدمي . كان المدرب على خطأ . دوت القاعة بالتصفيق . تطلعت إلى وجهه . كان أزرق مكمداً وعدّ الحكم : واحد .... اثنان ... ثلاثة ... اشتد التصفيق فنهض عيسى نصف نهضة وبصق بوجه القاعة : « كلاب ! » ثم استوى على قدميه وتقدم مني ، يمناه أمام وجهه ، يسراه وانية ثم سقط أرضاً ... « واحد ... اثنان ... ثلاثة » كان الحكم يبطىء بالعدّ ترتفع يده وتنزل بطيئة وراء الرقم .

نهض وتعلّق بي كأنه يعانقني . لفّ يديه حولي وأخذ يضرب الظهر على الكليتين ففرقنا الحكم . كانت الدموع تهمي من عينيه صامتة وهو يلهث . يميل يميناً ويساراً فبدت عيناه حولاوين .

استعد واندفع نحوي . درت وسقط وعدّ الحكم « واحد .. اثنان . » وأسرع هذه المرة فقد كانت الصاعدة أقوى من أن تبيح له النهوض مرة ثالثة . ودوت القاعة بتصفيق فاتر حزين .

شدّ على كتفي المدرّب فرحاً : « كنت رائعاً ... ستكون في المرة القادمة ملاكم المباراة الرئيسي . »

جاءني منظم الحفلة بخمس ليرات . كنت بحاجة إلى نصفها فقط .

استفاق عيسى فوجدني عند رأسه ويمناي ذات الصاعدة في جيبي تدعك الليرات الخمسة . صرخ : « أخرج يا كلب ! » مددتها له . « أخرج يا كلب . » وقفز عن السرير فسقط أرضاً مرة أخرى قريباً من قدمي . ودوت القاعة بالتصفيق للملاكمين الرئيسيين .

حكاية قروية

كنت وحيداً استاف كآبتي ، يمعن فيّ غباء المساء ينسرب اعمق ، اعمق كفكرة غامضة ، يشتّت نظراتي فتنهزم الاشياء وتغوص في وهم دخاني .

وقفت امام النافذة ونفخت لهاثاً اختزنته في احشائي اعواماً طويلة .

كل سنة في مثل هذا اليوم اعود إلى نفس المكان اقلب بين يدي ايامي فاجدني لم ارم شقاء الأمس البعيد، لزمني كظلي، تبعني انى حلت بي عصا ترحالي، افر منه ثم نلتقي كاننا على موعد ازلي كالساعة تدور على نفسها لتلتقي عقاربها عند نقطة البداية ، خلقنا معاً كتوأمين من جليد .

ما كنت اعلم ان الشتاء يمكن ان يثقل إلى هذا الحد ... الثلج ابيض يلتمع براقاً تحت اشعة القمر كأنه شعر فودي امام المرآة الخالية من التعبير .

حال لهاثي إلى نقط صغيرة تجمعت في نقطة واحدة وانزلقت على البلور ثم ذابت ولا اعلم اين .

وانا انسرب ايضاً في حنايا مجهول بلوري لا عمق فيه ولا ابعاد له ولا معنى .

نزع الطبيب طرفي السماعة من اذنيه وتركهما وراء نقرته وحرك نظارته قليلا على انفه ثم فرك وحدق في الأرض خجلا مما يقول لي .

نظرت إلى حيث اتجهت عيناه . البلاط نظيف لامع كأنما لم تمر عليه الممرضة الجميلة وهي مسرعة والابرة في يدها وعلى رأسها قطنة مبللة بالكحول .... لماذا نمر فلا نترك وراءنا اثراً ؟

قال لي لا بد من تخطيط للقلب . اظن ان شيئاً ما ليس على ما يرام لا بد من دراسة جدية ودقيقة قبل ان اعطي الجواب . انت تدخن كثيراً على ما يبدو ... سعلت فأردف : « الا تسمع صوت سعالك ؟ »

— انه حشرجة .

— انت تبالغ ...

— انا موقن مما اقول ...

لا يعلم الطبيب ان صوت سعالي يشبه صوتاً آخر لم يسمعه هو اما انا فقد انصت اليه ، حفظت جرسه ، يرنّ في اذني كأنه يجيئني الساعة من صدر ابي . انهما من لحن واحد ، من مأساة واحدة ، كلاهما نذير بما لا يرد .

انا ايضاً قلت لابي : « لا تدخن ، انك تكثر ، تجهد صدرك » .

قال لي : « غداً انقطع عن التدخين . »

هذا الغد ما جاء بعد . لم يستطع ان ينتظره ، كان على عجلة من امره يستحثه وهم لم أدرك كنهه إلى ان يسلك طريقاً اخ ى ربما تكون اجمل مما عهدنا من طرق، وربما لا، ولكنها مترعة بالمجهول وعهدي به طلعة يكتنه الاسرار ، يحدق فيما لا يرى . تجحظ عيناه . تتسمران امامه تارة على الحائط واخرى على الافق البعيد . كثيراً ما كنت اقف وراءه انظر إلى حيث يرنو فلا اعثر على شيء . ويستيقظ من سهومه فيحدثني طويلا عن اشيائه الصغيرة ، البسيطة احياناً ، التافهة اخرى ولكنه يلفعها بأثواب موشاة بسندس ربيعي وخيوط ذهبية فاعلم انه كان يطوف ارضاً غير ارضنا. ومن يدري فربما كان يبني عالماً يتوق

اليه حتى لم يدع له الشوق فرصة للانتظار .

اما انا فاني أجوب العالم أتربّص لهذا الغد ، ابحث عنه بقلق الراحلين . كيف يكون اليوم الذي لا سعال فيه ولا خوف ؟ كيف يكون اليوم الذي نقدر فيه ان نقول انسلخنا عن ماض مليء بالدخان والدوائر الضبابية واعقاب اللفائف والنيكوتين ، يوم لا تفتش فيه ايدينا عفوياً عن ثمن علبة الدخان ، يوم تتغلغل الراحة سعيدة في صدورنا فلا تهتز الاضلاع ولا تحتقن وجوهنا ولا يستيقظ الجيران على صوت اجش ثقيل يخرجهم من سررهم كي يشاهدوا مسرحية النهاية على شاشة الرحيل .

علمني يأسه الطويل هذا الشوق . بات حلمي الذي اتعلق باهدابه انسج حقيقته وراء حدود الحقيقة . شدني قنوطي من الواقع إلى ان اعيش حياة ثانية حتى . ليرميني الآخرون بالخبال . احس بالبرد فاظن ان الدفء ينتظرني في اول زاوية من زوايا الشارع الطويل حتى اذا وصلت اليها وعثرت على عمود من جليد ، تجاوزتها إلى الزاوية الاخرى فيسبقني اليها الصقيع .

اظن الثروة والمجد قريبين على بعد لهفة إلى فتاة جميلة وتنزلق الصبية في حنايا مكان لا نهائي يغلفه ضباب اثقل من كآبة .

لم يبصق ابي دماً ابداً .

وحيناً يلهث جميعاً ، يقيء رئتيه . اجهل منذ متى اصيب بوهن الصدر . علته عتيقة ولدت مع الزمن ، يظل البلى يحوك في زواياه خيوط العنكبوت والعفن والسل .

كان ابي طويل القامة قوياً لا ينبيء وجهه بمرض ما ، صدره صلب التكوين مليء بالحيوية والاسرار ككهف جبلي. ولكن ملامحه الحزينة كانت تدفعني للشك بقدرة قلبه على مقاومة صدى لهاث الحي . لولا

انه السعال لتزوج مرة ثانية. فقد كان يحب الاطفال كثيراً . لقد راودته الفكرة وغارت امي كما تغار امرأة عاشقة وارادت ان اكون إلى جانبها غير اني حكمت العقل والعلم فصممت على ان يكون له ابناء آخرون التقي بصورته في وجوههم . لعلهم كانوا يكونون اطول مني قامة فانا لا احب القصر لانه مصدر تدخيني .

عندما شببت عن الطوق كنت اقصر طالب في صفي فاردت ان اثبت لرفاقي اني اكثر معرفة بالحياة منهم ، اكثر رجولة فدخنت وسعلت آنئذ سعالا طفلا، لا حشرجة فيه ولا خوف .

لو انه تزوج ثانية اما كان يولد منه اخوة لي اطول واجمل ؟ اقترب من المرآة ابحث في وجهي عن زرقة عينيه فلا اجدها . ما اجمل ابناء ابي الذين لم يولدوا !

جئته ذات يوم بعد ان فرغ من صلاته نبحث في امر بيتنا الذي اراد صاحبه ان يزيد في اجره ، كما كنت افعل كلما اردت ان اصل إلى بغيتي منه .

كانت الصلاة تكسر عناده ، ينتهي منها ، فيحول رضى كله وصفاء . عيناه تتألقان بحبور غني عن الرفض كله فيمسي متاع الدنيا اصغر من ان يتمسك به .

كان يصلي في فناء الدار . قبعت في الغرفة اتأمل من النافذة يديه وقد تعلقتا بخيوط النور القادمة اليه من النجوم فارتدى بياضهما التق لجين وسخاء ينبوع . وعيناه تشخصان إلى افق عصيّ على عيني كأنما وجد على نداء اعماقه الخفي .

— قلت له : لم لا نشتري بيتاً ؟

لم أكن في الحقيقة آمل ان تكون لنا دار جديدة . ارتفعت اسعار الارض لان الولادات كثيرة، وازداد عدد الباحثين عن مأوى ازدياداً

مريعاً وباتت حفنة التراب شيئاً ثميناً .

كنت بحاجة لحذاء وبزة، فقد حملت شهادتي وآن لي أن اكون موظفاً . فاردت ان اعد نفسي للمراجعات ومقابلة ذوي الشأن . قد اضطر للوقوف بين يدي الوزير ، وما ينبغي ان اذهب اليه بحذاء مثقوب وسترة بالية .

لا انكر ان ابي صنع المستحيل من اجلي، وانا المسؤول عن بلى سترتي وحذائي. فقد كنت اسير في الطرقات كثيراً كثيراً ابحث عن فتاة ابتسم لها لعلها تبتسم لي . وبلغت الثانية والعشرين وانا اجوب الشوارع غير ان سترتي لم تستهو الفتيات والذنب ذنبي ايضاً .

اعطاني ابي ثمنها وقال : « اشتر سترة جميلة . » كانت مفاجأة لي فقد اعتدت ان اذهب معه إلى تاجر الاجواخ الرخيصة فيبتاع لي قطعة على هواه لا تعجبني في غالب الاحيان لان لونها لا ينسجم مع شكلي ثم نذهب بعدها وهو يسير قدامي إلى الخياط وانا اتبعه مطرقاً احلم بيوم البس فيه على هواي . اتأبط القماش وانظر اليه متأففاً . كان ينتقي لي دائماً لوناً لا مرح فيه ولا حياة . اما هذه المرة فقد حررني .

غادرته فرحاً اقصد دكاناً غير التي اعتدنا الذهاب اليها معاً . وفي الطريق اشتريت علبة دخان اخرجت منها لفيفة وطلبت من اول عابر سبيل ان يشعلها لي . كان بوسعي ان اشتري علبة ثقاب ولكني كنت الح على ان يعترف كل من يمر بي اني اصبحت حراً. وعلى باب السينما توقفت مرة اخرى. اخرجت المحفظة من جيبي بشيء من التعالي وطلبت بطاقة درجة اولى. ولم انس ان اشرب في الاستراحة زجاجة بيرة فترهل خداي متعة. ونعمت بالفلم كما لم افعل من ذي قبل. وانساب في عروقي خدر لزج وقررت ان اعيد الكرة .

ذهبت إلى « سوق الحجا » فانتقيت افضل سترة من كومة كبيرة

لا تختلف عن الستر التي يصنعها الخياط الا ببقعتين على الصدر وثلاث او اربع على الظهر والكتفين ، فيممت شطر المنظف ووضعتها لديه وكررت حوادث يومي مدة تقارب الاسبوع لم تعجب ابي في نهايته سترتي الجديدة .

بعد ان انتهى ما لدي خرجت من السينما وتناولت اللفيفة الاخيرة وقذفت العلبة على الرصيف ثم درت في الشوارع قليلا . انتهت اللفيفة . قلت في نفسي : « لن ادخن بعد الآن . »

اخذ ضميري يعذبني فسرت طويلا . عدت إلى البيت فوجدت ابي بالباب يبيع بيض دجاجاتنا ويسعل . ارتجفت اعضائي خجلا . كم صرفت من ثمن البيض ؟ اخذت احسب فعاودتني شهوة التدخين لان المرء يدخن عندما يفكر وانتهزت فرصة انشغاله فدخلت إلى حجرته وامسكت بعلبة تبغه وفتحتها . لم يكن بها الا القليل الناعم مثل طحين اسود . اعدتها إلى مكانها ثم امسكت بها مرة اخرى . اخرجت ورقة ووضعت بها التبغ واخذت ادور بها حوله فلم انجح في المرة الأولى ولا الثانية ، ودخل ابي فجأة .

تراخت يدي وانزلق التبغ من الورقة وبقيت تلك في يدي وجمد كلانا في مكانه — لم يقل شيئاً ولكن وجهه احتقن . اظن اني سمعت خفقان قلبه . اخذ العلبة وخرج وسعل طويلا .

قالت لي امي في اليوم الثاني : انت تدخن اذن !

— احياناً .

— ذلك يغيظ اباك . انه يحاول ان يمتنع عن التدخين فلا يقدر . الا تسمع سعاله اللاهث صباح مساء ؟

واقلعت عن التدخين ثم عدت اليه لما اعطاني مصروف اسبوعي . تقدمت للفحص ، نجحت وحاولت اقناع ابي بضرورة شراء بيت

لعله يعترف بما يملك من مخبئات فتكون لي بزة لمقابلة المسؤولين وما كان ينبغي لنا ان نعيش في بيت تقطنه معنا الحيايا . جاءنا الحاوي وهو يضرب على دفه فاخرج حية ينوف طولها على المترين. والعقارب كثيرة لدغت احداها امي فمرضت اياماً كدنا نفقدها فيها لولا حكمة صديقي الصيدلي .

لم أكن جاداً كل الجد في شراء بيت فذلك واجبي انا . سأجيئه في اول شهر اقبض راتبه وارميه بين قدميه كشيء تافه . سأغدق عليه كأمير متلاف لا يأبه للمادة ينثرها تحت نعال الذين يحبهم . كنت حاذقاً في ادارة دفة الحديث كي تكون لي بزة مراجعات .

قلت له : صدرك متعب من سكنى هذا البيت ، شقوقه تستقطب الريح كخيمة بدوي . اننا نرتجف جميعاً من البرد . الا ترى كيف يكاد ينهال فوق رؤوسنا ؟ الفئران تشاركنا زادنا ، تترك وراءها رائحة نتن عفنة . كلما امطرت السماء هما على رؤوسنا وكف مدرار يطاردنا في زوايا الغرف كأنه شرطي وكأننا سرقنا بيوت الله .

قال لي حزيناً : الموسم السنة سيء . ننتظر الموسم القادم .

— الموسم الماضي كان جيداً .

— لم يبق منه الا ديون الموسم الحالي .

حاولت عبثاً . لقد بلغ الستين ، سنة الجفاف ، حيث تتجمد العواطف ، سنة الخوف ، حين يبدأ الانسان يعد ايامه فيمسي بخيلا يخبيء دراهمه ليوم لا يعيشه .

لما اعيتني الحيلة قلت له : اريد بزة .

فعمد إلى علبة التبغ ودرج لفيفة اشعلها واخذ يفكر فقال : « لك بزتي القديمة . خذها . لست بحاجة لها فانا لم البسها الا مرات قليلة وتعلم اني بت افضل الزي العربي . »

وفشلت في ان يعترف بكنوزه . اين يذهب اذن كل هذا الدجاج ، كل هذا البيض والحليب والقمح ؟ ذهبنا معاً إلى الخياط على مضض واتفقنا على ان يسويها على قدي واعطاني ايضاً حذاءه .

واخذت اطرق الابواب . على كل باب حارس . وراء كل باب معجب بنفسه يزن كلماته وحركات وجهه ويديه ، يصيح كي يسمع صدى صوته ، ينقر باصابعه على المكتب كي يتأكد انه هنا فعلا . يردد ان اعماله كثيرة كي يقنع نفسه بذلك . يستقبلني فاقف بين يديه واعرض قضيتي وطلب التعيين في وظيفة صغيرة من اجل ان اسمع كلمة « آسف » ثم اقفل راجعاً حتى صار سماع هذه الكلمة هو هدفي من المراجعات لا التعيين . اغراني تمثيل هذا الدور فقد كان مثيراً للغاية، اتقنته حتى بات عادة تعودتها كالتدخين .

واخيراً قبلت عاملا في ورشة بناء . قلت لابي : « وظيفتي صغيرة ولكني انتظر افضل منها . » واخذت ابني جيداً .

ذات ظهر رآني وهو في طريقه إلى المسجد الجامع امزج الاسمنت فانتبهت اليه وانتبه الي فاختبأت وراء زميلي الضخم الجثة ، فاقترب مني ابي وقال : « انا سعيد بك يا بني ! »

وخلع سترته وعلمني كيف يمزج الاسمنت . فاتته الصلاة وعهدي به ضنين بها جامعة ظهراً فنبهته فقال : ان نبني افضل من ان نصلي . اذا فاتتك ساعة البناء لم تعد . اما الصلاة فيتقبلها قلب الله انّى ومتى فعلت .

في المساء دخلت البيت كلص واويت إلى فراشي وهو ينتظرني . ولم يعلم بمجيئي الا في وقت متأخر . قالت لي امي في الصباح : كان ابوك سعيداً . كان يريد ان تسمر معه ليلتك . حبذا لو فعلت اليوم. يبدو انه كان يريد ان يقول لي شيئاً ، ان يشجعني ويخفف عني

مشقة مصير لا استحقه. فانا احمل شهادة مثل الذين يرتدون حلة جميلة ويرقصون ويدخنون ويشربون . اخذت اتجنبه وأجتر مرارتي وحيداً .

ظللت اتابع التعيين . اعلن عن مسابقة نجحت فيها فلم اعين لاني نجحت . واخذت افهم كثيراً من الامور . واعلن عن مسابقة اخرى فعينت لاني لم انجح وقد تكون هنالك اسباب اخرى وقد اعرفها ولكنها سر لا ابوح به فقد حق علي الصمت ما دمت موظفاً .

ذهبت ازف لابي نبأ فشلي الرائع فلم يسعد كما سعدت . كان يفضل ان ابني .

بدأت انتظر الراتب الاول واخذ اليوم الموعود يقترب بطيئاً ، يوم اقف بباب حجرته واقول له : « « خذ » » .

غدت صورة ذلك اليوم حياتي الثانية ، حياتي الحقيقية . اقف امام المرآة ادرس كيف ابتسم .

هل اقول له : « خذ » ؟ قد اجرح شعوره فهو متكبر ... ينبغي ان احني راسي ، ان اخجل ، الا انظر اليه ، ان امد له الغلاف واخرج سريعاً ...

هل استرق النظر اليه وانا اعطيه الراتب ؟ قد يفطن لأمري لو فعلت ... ولكني اريد ان استمتع ولو لحظة قصيرة بظل السعادة على وجهه ... لقد وهب البؤس قسماته جمال نسر جبلي ، شمخ انفه وقسى حتى لينهي ويأمر . اصابعه تعبث بشاربيه دون ونى كأنما تداعب الصمت تقسره على ان يشرق بالبوح ويئده . رسم التقطيب الطويل بين حاجبيه خطين متوازيين . ترى هل تمسح فتمحو ابتسامة مشرقة بؤرتي العذاب التي اقتعدتا جانبي الفم ؟

ماذا لو قبلته وسفحت على خده القاسي المتورد دمعة اخبئها منذ امد بعيد استغفر بها منه اني مددت يدي إلى علبة تبغه . ولكني لا اذكر

انه قبلني ابداً ، لا اذكر اني رأيت في عينه دمعة وما كان يجيز لي ان ابكي فالحياة لديه جافة من الدموع ، والقبل لا تطيق ان تتجاوز الاعماق إلى السطح . عالمه يمور في ابعاد قصيّة عن العين تقضم الحنق والاحزان نكتشف لمساتها في خطوط قاسية عديدة على صفحة وجهه كأنما يثب من داخله جنيّ في غفلة عنه ، قد يكون ذلك في نومه ، فيخط رؤاه على جلده حتى لأرى كل يوم خطاً جديداً .

افضل ما افعل ان اجيئه بشكل طبيعي فاقول : « خذ يا أبي لعلك ترضى عني . » ولكنه يكره الامور إذا سارت على طبيعتها ، يثيره العادي ، يخنقه المألوف . توتر روحه اخرجه عما تعارف عليه البشر فاجتر غربته خلال اعوامه الستين . كان يريد شيئاً لم يفصح لي عنه . اظن انه كان يريد بين آن وآخر ان نتحدث معاً ، ان يبوح لي ما يكن في صدره ولكنه كان يجدني بعيداً عنه .

بعد ان صرت موظفاً قررت ان اسمر معه وان اسجل اقواله وافكاره فانا اعلم انه كان غزيراً كطوفان ، غير انني لما عدت إلى البيت وجدته ساهماً تعبث اصابعه بشاربه فأويت إلى فراشي ولم أنم . كيف اجعله سعيداً ؟

بات حملا يثقل كاهلي لا افكر بسواه . من اين يجيئه كل هذا السهوم ؟ بماذا يحدق كل يومه ؟ كان الشتاء ثقيلا لم يترك له مجال الذهاب إلى الحقل . ماذا تراه يرى ؟

عاودتني فكرة زوجة ثانية له واطفال شقر طوال الاجسام ... ألم يكن يا ترى عاشقاً ؟ لا بد وان يكونه ... هذا الصمت الطويل هو صمت العشاق ... ماذا كان يحب ؟ كانت صلواته الصباحية طويلة يستبقظ لها قبل ان يؤذن الفجر وتستمر حتى بعد ان ينتهي المصلون .

كنت اعد الايام .

في اليوم السابع عشر حزم امره على الرحيل فلم يستطع الطبيب ان يثنيه عن عزمه .

كان يوماً صاحياً من ايام الشتاء كأنه شرد من ربيع ارض بعيدة تمر غيومه رقيقة عجلى كأنها مرح طفولي لا يخدش بضبابه زرقة السماء التي تبدت كفتاة علمت ساعتئذ انها جميلة .

عدت بعد العمل إلى البيت فوجدت ابي يعد عدته وهي قليلة على غناها .

قال لي : حقنة الطبيب جيدة اراحت اعصابي .

سألته ما الأمر ؟

قال : خفق قلبي خفوقاً شديداً فاستدعيته .

وقبعنا نتحدث قليلا . كان شارداً على غير عادته . كلماته اشبه باصداء عالم سحري، كأنما يطوف النجوم فيأتيني بما حفلت به من أنوار واسرار . ثم حطت قدماه فجأة على الأرض وضغط على وجهه واحتقن وجهه وعض على شفته السفلى ثم جرض بريقه وعاد فأسند ظهره . قمت هلعاً اليه . قلت له : استدعي الطبيب ؟

— ابق لدي . ارسل اخاك .

ثم عاد إلى طوافه في اصقاع مجهولة وقلّب كفه ونظر اليه .

— أليست يدي. جميلة ؟

— بلى ما اجملها !

— تذكرني بليلى .

— اية ليلى ؟

فضحك وقال ما لك ولهذا ! اعطني المرآة .... يريد الطبيب ألا ادخن ... غداً انقطع عن التدخين .

واصطك فكاه وارتعد جسمه ثم تسمرت زرقة عينيه على رؤيا

من غير هذا العالم .

وران هدوء ذاهل على الحجرة . وقفت دجاجة بالباب وحملقت عينها البلهاء ونقرت على الأرض عدة نقرات ثم عادت إلى فناء الدار .

وجاءت أمي فأغمضت عينيه كي تنزل معه آخر رؤاه إلى قبره .

نظرت إلى وجهها فاذا هو قد شاخ اعواماً . وعمدت إلى دلة القهوة فأبعدتها عن النار ثم اخذت فنجانه فغسلته ووضعته عليها فترنح قليلا وتوقف ودارت في ارجاء الغرفة كأنما تبحث عنه بين ثيابه المدلاة على الجدران ، وظلت العنكبوت في زاوية الغرفة العليا تروح وتجيء تحوك خيوطها الواهية .

جمعت اشياءه في الصندوق الخشبي القديم فهو افضل مكان في البيت للنسيان. وبينما انا انضدها سقطت رزمة اوراق مالية عددتها فاذا هي ثلاثة آلاف ليرة . ما معنى ذلك ؟ لم يكن اذن فقيراً كما ادعى . لا بد ان لديه مخبئات اخرى . ربما كان يخفي ما يجنيه من اجلي فقد كان يعرف اني فتى فاشل لا قدرة لي على بناء مستقبل . انا ادري انه كان يريد ان اتزوج وان يكون لي بنات وبنين . لقد اسرّ لامي قبل موته بأيام انه سيخطب لي احدى رفيقاتي في الجامعة اضيف راتبها إلى راتبي فنعيش في سعة .

ولكن لماذا تركني اطرق ابواب ذوي الشأن بثياب عتيقة ؟ ألم يخطر بباله ان احد اسباب فشلي تلك البزة التي تنازل لي عنها ؟ كانوا ينظرون إلي بعين التهكم : لا شواغر ، انتظر الميزانية الجديدة .

عهدي به صادقاً فلماذا كذبني ؟

دفعت بسخاء على جنازته، لففت جسمه بالحرير ، جئت باحسن قراء القرآن ، لم اترك وسيلة اجعل بها موته كريماً ولكن صورته الخالية من الرياء تقلصت في ذهني .

نفثت لهاثي وانا اغالب صورته الجديدة وافكر اين اجد الباقي فتجمع في نقطة ماء على البلور انزلقت كوهم . طرق الباب . فتحته . دخل علي ربيع البردان . جلس فعزاني وبعد ان تحدث عن ابي قال لي : خبأت عند ابيك ثلاثة آلاف ليرة بعت بها قطعة ارض كي اشتري بيتاً فأنا على اهبة الزواج . كان ذلك قبل موته بيومين . كانت موضوعة في كيس أزرق .

اعطيته ما بقي في كيسه وطلبت اليه ان يعود في اول كل شهر .

الجدران العالية

عندما دخلت سجن المزة عام ١٩٦٢ ، اخذني الذين جاءوا بي من فرع المخابرات الى غرفة رقيب السجن . كان يأكل فنظرت بشره الى مائدته . مضى علي يومان بلا اكل .
قال : تفضل
قلت : شكراً .
واذن لي بالجلوس على كرسي ريثما ينتهي من غذائه . ثم جرى التسليم والاستسلام واصبحت تابعاً له .
قال لي : اعطني كل ما لديك واخذ الحزام وربطة العنق وكل ما بجيوبي ثم دسها كي يتاكد من انها اصبحت خالية لم يبق معي غير قلم في جيب بنطالي دخل معي الى الزنزانة فذهب جوعي .
سمح لي بعد ايام بالتدخين فعمدت الى ورق علب السجائر امسدها ثم اكتب عليها . وذات يوم اكتشف الامر وصودرت مني الاوراق .
عندما صرت وزيراً طالبت بها فردت الي . هذه هي الجدران العالية . لم يتيسر لي ان اكتب سواها في الشهرين الاولين من سجني. وجدتها كاملة على اوراق علب السجائر ما عدا بضعة السطور الاخيرة التي كتبتها في باريس اتنبأ اني عائد الى السجن .

الغروب يدب في عظامه قاتم الالوان . لا حمرة شفق تزهو ولا غيمة ترشها الاشعة المسائية ، وهو يرقب مصيره لاهفاً يريد ان يتبين

ما هو . انه يدرك قسوة هذا المصير والعذاب المر الذي تطفح به أيامه ولكنه يستعجل الامور لعله يعرف مخبآت قدره .

قضي عليه ان يقضي بقية أيامه مستلقياً على قفاه لا يريم السرير الخشبي . هكذا ارتأى الطبيب . قال له ، ستشفى خلال أيام .

ألبسه مشداً زعم له انه يحفظ وضعية الاستلقاء حتى عندما يجلس لانه يباعد الفقرات فيعود الغضروف إلى مكانه في مدة قصيرة .

وانقضت ايام وشهور وسنون وهو وحيد كصخرة على منحدر شاء حجر صغير وقف في سبيلها الا تزل إلى الوادي ، عودتها للقمة مستحيلة والحجر الصغير يمسك بها من أن تسلك سبيلها السريع إلى المنحدر. زلة صغيرة . غفلة منه عن الغضروف الخارج من مكانه بين الفقرتين الرابعة والخامسة ، حركة من جذعه كما يتحرك الآخرون تغرب شمسه إلى لا طلوع . بقاؤه على الأرض رهين باستلقائه الطبي على الخشب وبالمشد الذي يجعل جذعه دائم الانتصاب .

حاجته إلى الكسب شديدة . حوله أفواه يجب ان تغتذي وما ادخره يذوب سريعاً . عيناه عالقتان في السقف يتأمل الآتي من أيامه . ماذا يحدث للافواه الصغيرة لو انتهى ما لديه ؟

هذه الخاطرة تلازمه منذ ما أحس بأول وخزة وراء الجدران العالية .

كانت الساعة الثانية والنصف . جلس يأكل وحوله الصغار ، هذا يتصيد قطعة من اللحم وآخر يريد ان يأكل برتقالة قبل الغداء . وعلى فمه ابتسامة باهتة تردد أصداء شبح الخوف .

منذ شهور نزل الرعب إلى المدينة . ترك الاصقاع الباردة . جاء يزحف معه الهول. رائحته تزكم الأنوف . عشش في أبهاء المسرح الكبير . ترك الراقصون رقصهم وانطفأت أغاني الفرح .

البشر يفرون والابواب مغلقة . ووراء الزوايا كان يتصيدهم

الرعب ، يجرهم من اعناقهم إلى المصير والشمس ترسل اشعتها اللاهبة . جفت الدروب وامتقع وجه الارض والبشر يتربصون يتلفتون يميناً ويساراً وإلى أعلى . يبحثون عن فجوة خلاص . باب السماء كان موصداً كقبة من نحاس .

كان يتردد وقع خطاهما على الطريق أصم الرنين حتى تخوم المستحيل .

كانا يبتسمان . عيونهما تنضح سخراً . مم كانا يسخران ؟ كانت اللقمة الأولى في فمه . أزف مناد بالرحيل وفي جو الغرفة الصغيرة هوم الحذر بأجنحته الكئيبة . امتقع وجه الجدار وصر الباب ، اصطكت اسنانه الخشبية . وفي البعيد عوت ذئاب السلطة يشحذ غرائزها الجوع إلى دم بريء وأغنية الشيطان يرددها عازف قميء .

كان هو دائم التفكير في أحجية العصور الاخيرة ، يبحث وما يهتدي إلى حل رموزها وهو عاشق الاسرار يريد ان يعطيها تفسيراً . حياته دوامة ، كلما حدق أصابه الدوار . والرسوم تتراقص أمام بصيرته في ظلام مستحيل على النور . لكم مد يديه إلى ما ظنه قبساً عصياً على البشر انحنى أمام تحديقه الطويل وأشواقه العاشقة فاذا القبس ظل للظلمات . وعيناه عنيدتان لا تتعبان .

تلك الساعة هم كنبي جديد ان يلقي بنفسه في أحضان العذاب الالهي . كانت الثانية والنصف يذكرها لانها منذئذ تعود للوراء .

كانا يسخران من عينيه اللتين استفاقتا من اعياء طويل .

سألهما : من اية مملكة أنتما ؟

أجاباه : نحن أبناء مملكة الجدران العالية . قذف بنا اليها صباح أسود الاصيل . دفعتنا اليها يد عجفاء على غير موعد ولا اختيار . انها المملكة التي يموت فيها الفكر ويعيش فيها الانسان بلا غد ... وانت

لماذا تبحث عن النور ؟ جاء دورك هيا بنا ...

والصغير من ابنائه يلهو بقشر البرتقالة .

— من ارسلكما إلي ؟

— الذي اختارك .

— من الذي اختارني ؟

— الذي يستخدمنا .

— من الذي يستخدمكما ؟

— نحن نجهل من ، غير ان الذئاب كانت تعوي في ديارنا . البوم كان ينعق كلما حانت ساعة الغداء .

وجهه كالرغيف . صمت . قال الآخر :

— عندي طفلان .

— قال الاخر الاول : عندي ثلاثة .

كل منهما كان يتحدث إلى نفسه .

سار الثلاثة موكباً الف بينه الشقاء وخطواته تبدع الانين على الرصيف كما يبدع الليل أشباحه .

على الزاوية كانت تنتظرهم عربة موتى . أبناء حيه كانوا نياماً والشمس في رابعة النهار لان غفلة هومت على أجفان البشر فما يستيقظ انسان على الاحزان .

كان في زاوية العربة اخرون تقوقعوا وتجمعوا بعضهم على بعض كأنهم كائن واحد شدهم الخوف برباط خفي حتى لا يتبين امروء منهم أعضاءه .

قال : مرحبا

تطلع كل منهم إلى من حده .

قال أحدهم : أنت من عالم آخر .

قال الثاني : ولكن في عينيه ظلالا من عالمنا .

قال أحدهم : ألا ترى حلماً أخضر يطفو كموجة نهر في عينيه .

قال الثاني : انها ظلال العالم الآخر .

قال هو : أهنالك عالم آخر ؟

وران صمت موجع القسمات وأعولت العربة في خبب نزق ثم توقفت بعد لأي على حافة الهضبة .

كان لا بد من مسيرة لان الولادة مسيرة طويلة . ترجل الراكبون يرتعدون فرقاً وحمل كل على ظهره خشبة أثقل من أن يحملها كاهله والسوط يدفعهم عن الوقوف كأنه الموت . كان فيهم نهم للسير على وعثائه .

وعلى باب الجدران العالية نافخ في الصور يسأل عن أصحاب اليمين وأصحاب اليسار فاتجهوا إلى اليمين غير ان السوط دفعهم إلى اليسار ثم أغلقت الابواب جميعاً .

اليوم الأول :

عقلي يهوم كأنه في ارجوحة . ليت لي لفيفة أنفث دخانها وأداعب دوائر الضباب أرسلها إلى هذا الضوء الكهربائي الذي يتطلع إلي كعين جلاد . عندما أغمضت عيني أرسل اليهما سهامه لانه يمقت العيون المثقلة بالنعاس . بات العالم ست خطوات ونصفاً قطعت أبعاده الاف المرات في يوم واحد . انه أضيق من أمنية . مددت ذراعي ... مست كفاي حدوده وقد ظننت أن البؤس لانهائي الحدود . سندت كفي على الجدارين . وجدتني معلقاً . قدمي ارتفعت عن الارض . غرزت فيها قدرة لئيمة خفية مسمارها . طويت ذراعي ونزلت إلى الأرض لعلي أمسها بأصابعي فأنا أحبها رغم ما تقيء به من نتن في هذه المملكة .

الحربة غارت في جسدي . عهدي بها تشق صدور النبيين . تنغرز في قلوبهم وأنا لست نبياً ولا رسولا أنا انسان خاطىء أحب الارض، شغف بالانسان . ألهذا اختارت ظهري . ارتجف الجسد جميعاً ولفني الخواء . عيناي دلفتا إلى ديجور أسود . تقلصت أعضائي وارتجفت وانسدل بيني وبين العالم سجف غامت فيه الاشياء . ثم صحوت . قدمي ويداي مسمرة . الحربة في ظهري وأنا على خشبتي أرفل في أفراح النبيين . ذنوبي امحت ولمحت الصلاة في عين الحارس الذي يسير في الدهليز .

اليوم الثاني :

استلقيت على الحجر . قرأت على الجدار : أحمد النوار من ٧ شباط إلى .... وتلفت فوجدت عوداً من الثقاب تركه لي كي أكتب اسمي ولكني لم اكتب من ... من يعلم متى جئت هذا العالم ؟ من يدرك ان كنت افارقه .... انه معي منذ أمد بعيد ، المكان الذي يؤوي الذين يطاردون النور . وضعت خطين .

الخط الثالث .

— انهم بانتظارك ؟

كان الليل فارع الطول تقدح من حناياه شرارات غزيرة وحشرجات مبحوحة . أخذت عيناي تنفتحان وتنطبقان لا تطيقان النور . تعودتا الظلمة أكثر مما يحق لهما . ثم جلست حيث يقبع المطاردون . الخارجون على العدالة ، الذين يجأرون بشريعة جديدة .

— من أنت ؟

— أي اسم تريدون لي ؟

وبحث في سجله الكبير .

قدم لي لفيفة وفنجاناً من القهوة نقلاني إلى أرض بعيدة يلعب

فيها الأطفال تحت ظلال الزيزفون ، تمرع فيها القبل على اصداء موسيقى حنون .

وغام هو وسجله في دخان لفيفتي ... كنت أتبينه أحياناً يقلب أوراقه .

وقف بالباب انسان . عرفته من مشيته . أشعث أغبر يحمل في كفيه شيئاً قانياً : قال له : ما هذا ؟

— قلب عثرت عليه .

— ما جاء بك إلى هنا ؟

— هذا القلب .

— قلب من ؟

— أظنه قلبي .

— هل تعرف من هذا الجالس قدامي ؟

— ألا تعرفه أنت ؟

وشردت ضحكة باكية من فمه .

— الباحث عن المجهول ....

وغمز بعينه وأشار إلى رأسه اشارة من يريد أن يقول له أني معتوه .

وندت عن الآخر نظرة مستغربة .

— انت الباحث عن المجهول ؟

— لا أدري ... سؤالك مجهول آخر .

طلع الفجر . أرجعوني .

الخط الرابع :

العواء يفجر أضلع الليل ، يمزق شرايينه . كتبت قصة قصيرة .

قصيرة :

دخل أحمد إلى الغرفة . تلقفه السوط . صبر . لم يند عنه صوت .

صفعة أخرى . تململ . ثالثة . انحدرت دمعة على خده . طرحوه أرضاً .
انهالت السياط . صمت . تأوه . صاح . بكى . حشرج . انقلب عويله
إلى عواء انساني. ثم لم أفرق بين عوائه وعواء الذئاب .

الخط الخامس :

ماذا جرى ؟ لا صوت ولا نأمة ! لا بكاء ولا عويل ! هل جن
هذا العالم فبدل معالمه ؟

غفوت ثم استيقظت بعد لأي . سقطت السلسلة . فتح بابي ...
دخل يسترق الخطا .

— أنائم أنت ؟

قال لي وهو يربت على وجهي :

قلت : لا ! أنا اعرف وجهك . لست غريباً عني . قل لي متى
رأيتك آخر مرة ؟

قال : كنت تراني عندما كانت تضعك جدتك على ركبتيها تقص
عليك قصص الأولين . أتذكر كم حدثتك عني ؟ ... هيا بنا ... قم !

— حربة في ظهري تدفعني عن أن ألبي دعوتك أيها الجميل
القسمات !

— قم ؟ أنا أشفيك من جراحك .

— ألا تنتظرني ريثما ألبس ثيابي ؟

— منحتك حلة يلبسها الذين يلوّن أحداقهم شفق انساني .

الضوء الكهربائي كان مطفئاً والجدران بيضاء . فتحت الابواب .
سقطت السلاسل وخرجنا إلى الهضبة .

قال : أنت اليوم حر . لقد استجبت لصلاتك . كانت من قبل
بريئة غير انها لم تصعد إلى قلب الله دون طعنة تأتيك في ظهرك .
طريقك لم تبتدعها أنت ولن تبدلها أنت . ألا ترى اليوم فجراً جديداً

عليك ؟

— من أنت ؟

— انا الذي جئت من الصحراء .

ثم فتح الباب وأعطاني الحارس خبز يومي واناء عتيقاً فيه زاد .
طلبت أن يراني الطبيب .

الخط السادس عشر :

الحربة تنغرز شيئاً فشيئاً . الرجل اليسرى باتت أقصر من اليمنى
ترتجف وانية تذكرني أن قش السرير تعيث فيه حشرات ظمأى .
زارني ابني الصغير . كان في حشد من الامهات والصغار . عيون
تطرف وهي تطرق باب الظلمة والنافخ في الصور يعدهم : واحد ،
اثنان ، ثلاثة ، أربعة ... يطردهم ، يقربهم من الباب فيتمسكون به
ثم ينهرهم فتراخى الاصابع ثم تعود ... جمع ألف بينه الترقب
والخوف .... والجدران العالية تهمهم وتجمجم ضد اولئك الغرباء .
جلس على ركبتي . قلت له : اجلس على الأرض .
قال : لا أريد أن أكون بعيداً عنك ... لماذا جئت إلى هنا ...
متى تعود ؟

— ذات يوم ستدرك يا صغيري ، عندما تشب أني جئت إلى هذه
المملكة من أجل الصغار لعلهم لا يحملون على ظهورهم خشباً .

كان كأنه حربة أخرى .

ذات يوم ...

امحى سواد عود الثقاب . لم يعد لزمني حدود . الحربة هي الوحيدة
التي تعيدني بوخزها الصارم إلى عالم البشر ... جاءوا فأخذوني لصاحب
السجل .

— لقد عرفتك.

— لن تعرفني . كلانا من عالم غير عالم الآخر .

— من أي عالم أنت ؟

— من قوس قزح.

— وأنا ؟

— ألست سيد هذه المملكة ؟

لم يسمع صوتي كأنه كان صدى من اصداء الجدران العالية . وانحنى مرة أخرى على سجله .

— ألست الذي زعمت أنك توقظ الموتى ؟

— بلى !

— أيقظني حتى أصدق دعواك .

— أنا أوقظ الموتى الذين تغفو اليقظة في ضميرهم .

عاد إلى سجله .

— ألست الذي جدفت على النبيين فطردتك الظلمة من أصقاع النور ؟

لم أجب .

— ألست الذي أردت أن تزحزح الصخرة عن باب المملكة ؟

— بلى .

على طريق الزنزانة تطلعت إلى القمر . لم أر وجهه منذ قدمت إلى هذا العالم المقبور . كان صافياً يحدق بي . تسامقت نظراتي اليه ونفذت عبره . لم تكن عيني أبداً على هذه الحدة . ووراءه كانت تمور دنيا الانتظار : كائنات بلا ظلال ، أشجار بلا ثمار تترقب وعداً من الغيب . مملكة أخرى مات فيها الزمن .

وخزة أخرى :

حملني الحارس على يديه . كنت خفيفاً كطفل ألم وسن حزين

بعينيه فما يتحرك . لم تعد قدمي تحمل أثقالي . رزء كبير يفترش أضلاعي . أرقدني على سرير . جمع كبير تضيق به الساحة الكبرى يدورون حول العمود الخشبي ... كان ذلك يوم القرابين ، عيد المملكة الوحيد ، تعم البهجة وتطفح قلوب سدنة المملكة بالبشر .

ما كان يوماً محدود المعالم . ينتقيه صاحب السجل عندما يلذع حلقه الظمأ . يجمع الخلق في الساحة الكبرى يفتح سجله اعتباطاً ويدعو أول اسم يراه ثم يبدأ الاحتفال المقدس حتى اذا دنت ساعة الشراب شد المحتفى به إلى العمود ثم انطلقت رصاصات فسقط يحل الموت وثاقه وفار الدم من فمه فجاء صاحب السجل ولعق لعقة من الاحمر القاني .

بدأ الاحتفال أصفر ممتقعاً مرتعد الاوصال . دار الجمع بطيئاً بائساً ، غائر العينين تلهث خطاه رعباً : خشبتي كانت في الزاوية عالية ، عالية لم يبق بيني وبين قلب الله غير طرفة عين ... ومضة صغيرة من نور .... والحربة في ظهري تسحق عظمي تنهش جسدي .

أخذت المسيرة حول العمود ترتعش بألف رغبة ميتة وغامت العيون في بحران قنوط ذاهل .... الاقدام لا تحمل الاجساد تنوء بأخشابها والسوط يجلجل في أجواء مستحيلة على القفز ، وهو يدعوها إلى رقص على ايقاع الصور .

واحد ، اثنان ، ثلاثة ... واحد ، اثنان ، ثلاثة ... سقط الحشد جميعاً بترنح .

واحد ، اثنان ، ثلاثة ... نهضوا جميعاً ، ترنحوا جميعاً ، سقطوا ... غير فتى صحا فجأة على أمنية ... جرفه داع للصلاة في غير موعدها ... ضم يديه ورفعهما : ظن العمود اله ... أوثقوهما وساروا به ..

حبوت من سريري ... صحت في زحمة العذاب : خذوني معه ...
وغامت الدنيا مرة أخرى ... حلمت انني قتلته .
وأطل وجه امرأة من نافذة بعيدة فتطلع اليها الجمع كله نَهِم الشهوات .

منذ شهور لا يريم سريره الخشبي ، ينظر من النافذة عبر الشارع يتطلع إلى القبة النحاسية . يغفو فتقرع النافذة :
— لم تحاكم بعد ... موعد المحاكمة قريب .

بعد سنوات ...
النافذة تقرع كل يوم ...

نجومة

ما عادت سبيل الدموع سالكة ، ملأها قبلنا المعذبون ، سابلة ، باكون ، مكدودون ما تركوا موطىء قدم لأقدامنا ولا بحراً ترفده مآقينا ، بتنا لا نسير ولا نبكي . قدّنا الله من جمود ، وجودنا ، عيوننا صخر على صخر ، نَهيم فلا ندري إلى أية أرض ، أمسنا صار موجعاً ، غدنا رحيلا ، ما عاد متانا متى ولا أيننا أيناً . أود لو أهجع ... لا نوم ... أطبق جفنيّ فلا ينسبل الحجر . أنا تمثال فنان عاجز معتوه الإزميل ... واهناً أذرو بين يدي أمسي وغدي .
من كان يعلم أن الأرض تمسي يباباً والعشب هشيماً تقبض عليه فينسحق على راحة حنانك ؟ من كان يدرك أن يوماً يجيء تضوي فيه المروج جوعاً وعطشاً ، تتشقق جراحاً بلا دم ، كأن سكيناً ذبحت جلدها ففغر العظم أفواهاً جافّة الشفاه ؟ من كان يعلم ؟
لم يعرفني حمدان . ظنني غريباً . كنت غريباً حتّى الوحشة .
وقفت أبحث عن موضع شجرة التفاح ، لا بد انه كان قريباً ، تلك آثار الساقية ، هذا هو المنعطف الذي لحست عنده يدي « نجومة » ... هي ذي أطلال بيت جارنا اسماعيل . كان يضحك عندما يراني ساهماً ، يسقيني لبناً ، يطعمني خياراً ومشمشاً وفي الخريف عنباً ، يسألني « متى تتزوج ؟ » فأطرق ، يحمرّ وجهي خجلا ويقهقه ، يسند

ظهره على الجدار وهو يقهقه ... « تطارد عمشة ، تلحق بها إذا نزلت عن التلة ، يا ملعون ! تراودها عن نفسها ... »

— لا والله يا عم ! وحياة أبي وأمي يا عم لا .

ويضرب على فخذيه بيديه . يفرك ظهره على الجدار وهو يقهقه ... تهدم الجدار ، فقد ضحك طويلا . فرك ظهره عليه هو والضحك والشقاء .

— موضع شجرة التفاح قريب مني يا عم اسماعيل . أنا لم اراود « عمشة » والله والله يا عم اسماعيل !

شدتني الأرض اليها . أقعيت . أمسكت بين الابهام والسبابة ورقة حشيش صفراء ، ميتة : بين الإبهام والسبابة فقط داعبتها فانسحقت وانسربت ذراتها في مسام جلدي ، أوغلت في دمي ، طرقت باب القلب ، فتح لها قلبه وخفق حتى الوجيب .

لُسعت قدمي . جذر التفاحة المدفون حياً تحت التراب له ناب ، كالحية الرقطاء ولكن تلك لم تلسعني . بقي بين نابها وصدري شبران ، فخارت « نجومة » .

فررت إلى المغارة : ذكرى قصيّة شبّت معي . أنا اكبر منها بعشرة أعوام فقط تعدّ معي السنين ترمقني في أعياد ميلادي بعين حية رقطاء ونابها البعيد عن صدري شبران فقط .

لم أحفظ العشرين بيتاً من لاميّة العرب . هذا الشنفرى طاردني حتى القرن العشرين . يريدني مثله جاهلي المنبت والأصول ، أريش سهامي في عصر الطواحين الهوائية . أفر من قصائده إلى المغارة لا قدرة لقدمي ذاكرتي على الطواف في كل حنايا ألوانه ، حسي أبلد من جنونه . كان يعدو على الرمال . لماذا اختار عقلي الصغير في زمن كصحراء بلا رمل . كيف نعدو معاً ؟

قال لي أبي : « أتل علي العشرين بيتاً . »

أخطأت في البيت العاشر لأن عمري كان عشر سنوات فضربني ولم يسمح لعيني بالدموع ، أرادهما أن تكونا من حجر فذهبت إلى المغارة واستلقيت على قفاي كي أهدأ وتتسمر عيناي على ما لا تريان . لم تطق صمتي الحية الرقطاء فتدلّت من السقف . كانت المغارة تؤويني من حرّ تموز ، أختبىء فيها كي لا يرسلني أبي في بعض شأنه . كنت أحب الظل والرطوبة وسقف المغارة الصخري المتعرج . كانت بيتي الوحيد لا يصيح بوجهي فيها أحد ولا يزعق اخوتي الصغار. ما كنت أحسب انها تؤوي معي حية تتدلى من السقف كل يوم حتى تصبح على بعد شبرين من القلب . لا أظنّها همّت بأن تلدغني كانت تتأمل الطارق الغريب فالمغارة بيتها لا بيتي ولكن نجومة شمت رائحة الموت فجاءت تخور وتعدو فتنبهت وبهتّ وانزلقت خفيفاً كي لا تطالني الحية التي انتهت حياتها بطلقة رصاص واصبحت المغارة لي وحدي ولكني لم أدخلها فيما بعد .

مررت بها صباحاً كانت خالية على عهدي بها غطّى الشوك بابها . سفته الرياح فاستقر فيه . أمسكت بحجر وطرقت صدر الصخرة فرنّ على نفس الصدى القديم ولكنّ أحداً لم يجب . كانت القرية كلها خاوية . اتجهت نحو البيت .

كان الباب واقفاً على ميل قليل متكئاً على الحائط بلا مصراع بنى ابي أمامه جداراً كي لا تخلعه الريح . وصرخت في الباحة وذاب ندائي، صدى أخرس امتصه الجدب . لم أشمّ في غرفته رائحة التبغ ولا في مضافته ريح الهال . خشب السقف كان كسيحاً سقط بعض منه داس مكان فراشي بقدمه ، لا نار في التنور ولا خبز ، لا حشيش في مزود « نجومة » .

لم يعرفني حمدان ... حفرت الأرض بأصابعي ، قبضت على التراب أدنيه من انفي ما زال فيه شميم تفاح . كانت الشجرة وارفة . أغافل حمدان والعم اسماعيل فأركض إليها أقطف من ثمرها ، أخبئه بجيوبي وأعود إلى نجومة أطعمها إياها واحدة بعد أخرى فتلحس يدي وفمها ، يسيل لعابها . تلوح برأسها فأقفز وأصفق . كانت تحب السكر أيضاً .

اقترب مني حمدان وئيداً مرتجف الخطو ، يتوكأ على عصاه . كان يعدو كنمر . قال لي : « مرحبا يا ولد ! »

قلت : « هلا ورحب ! »

قال : « ويّاك تتن ! »

قلت : « نعم ! »

قال : « انطيني سيكارة ! »

ناولته الكيس الذي حملته له معي . جئت كي أراه . أعرف جيداً ما يحب . قعد حدّي وأسند عكازه على كتفه وأمسك بالورق يلف التبغ وأصابعه ترتجف جميعاً فرقص الورق والتبغ ثم استكانا قليلا وأشعلت له لفيفة فغبّ ونفث . وأعاد الكيس . قلت له . « هو لك يا عم حمدان . »

قال : « أعرف هذا الصوت ! »

وضع يده الراجفة فوق جبينه واقترب كما كان يفعل عند ما ينظر من على التلة إلى البعيد البعيد ليرى أجاءت البقرات أم تأخر الراعي . كان نظره حاداً كنسر ، اقترب اكثر ، كاد يلاصقني وانتفض فقال :

« تكول إنك علي .... يا ولّ والله علي ... »

— نعم أنا علي بعينه !

حال شعره إلى أبيض غير شعرات سود ترصعه هنا وهناك . لم

يبق من أسنانه الأمامية غير ثنية صفراء طويلة وتناثرت بعض أضراس على الفكين .

— أتيت كي أراك .

— كيف الحال ؟

— زين ! زين ! وأنت يا عم حمدان ؟ شني الأخبار ؟

— والله يا ولدي تغيرت الدنيه .

— شلون الأهل ؟

— ولّوا ... تزوج الأولاد وذهب كل في طريق .

— ونجيمة ؟

— توفيت بعد نجومة بعامين .

كان موت « نجومة » اكبر تاريخ في حياة القرية . باتت بعده يبابا . كانت هي التي تأتي بالمطر وتخصب الأرض وجهها فأل حسن . كانت تكرهها « نجيمة زوجة حمدان » لأن اسميهما قريبان لا تحب للبقرة اسماً انسياً . كنت أكره « نجيمة » لاني ظننت أنها تحقد عليها . ما عاملتها أبداً بحنان . ولكنها عندما ماتت بكتها بدموع غزيرة .

لم يكن الاسم الشبه الوحيد بينهما . العينان أيضاً : سودوان واسعتان كحلاوان ، دنيا غنج ورقة وحنان . بدويّتان ولدتا تحت مضرب على حافة تلعة .

جاءتنا عجلة صغيرة . أرسلها الينا السعد عندما تبنا عن تربية البقر . لم يكن في بيتنا غير ليرة ذهبية وحيدة خبأتها أمي ليوم أسود .

عندما اقتحمت الأيام السود باب دارنا كان في جيبها مفتاح وفي زاوية غرفتها صندوق مصدّف ، في قعره تحت ثيابها علبة فيها ذهب . كلما اسودّت الأيام تردّدت على الصندوق . طردت الليرة الأخيرة رفيقاتها . كانت مثلي تحبّ الوحدة كساحرة انقلبت ذات يوم إلى عجلة .

جاءت أمي بنت حارتنا « سكرة » التي رعت طفولتي ، باكية
تفرك يديها . كان ابنها مريضاً ظنناها فقدته .

قالت لأمي : « أغيثيني يا أم علي ، يذبحون عجلتي الصغيرة .
إنها سعد ! اشتريها أنت ... اعمليها لله ... »

عادت أمي من عند الصندوق معها الساحرة . ذهبت معهما
مسرعين إلى اللحام . كانت سكينه مشرعة على بعد شبرين من العنق
الأسود اللدن الطويل كحية رقطاء .

دفعنا الساحرة وقدت صديقتي الصغيرة إلى البيت ، أقسمت على أن
تكون صديقتي . ما كان أحلى الصبحة البيضاء في جبينها . داعبتها أمي ،
مسحت عن وجهها رائحة الموت وسألت سكرة :

— ما اسمها ؟

— لا اسم لها .

قالت لصديقتي : « أنت منذ الآن نجومة . »

انه اسم غادة بدوية مشبوبة القد والحنين .

وتسلقت الشجرة سريعاً كي أقطف ورقاً أطعمها . لم أكن أعلم أنها
لا تأكل ورقاً بل ثمراً ، تتفل البذر كي ينبت . ودخل أبي مستعجلا
قال لأمي : « هاتي الليرة . »

وتراخت يداها وفغرت فاها ولم تجب .

— عجّلي هاتي الليرة ..

— اشتريت بها عجلة ..

— ماذا ؟

وتراخت يداه ثم فغر فاه هو الآخر . ولطوت وراء الأغصان كي
لا يراني فصرخ وعربد ... « ردّيها ... أقول لك ردّيها . » وارتجفت
هلعاً وأحس أني على الشجرة . قفز عصفور منها على صراخه فنظر الى

أعلى ورآني .

صرخ : « انزل » فنزلت . ضربني ففررت لجأت إلى « نجومة »
احتميت بها . اختبأت وراءها فلحق بي ونظرت اليه عاتبة فوقف وحملق
بوجهها ثم مسح هو أيضاً الغبار عن جبهتها وقال بعد قليل : « لا بأس
إنها سعد . »

قال خذها إلى القرية بانتظار رحيلنا . كنا نرقص معاً على الطريق
أجري أمامها وبيدي الخبز فترفع ذيلها وتركض . كانت اسرع مني
تلحق بي فتأكل كسرة وتحرن فأعدو وألوح لها بكسرة أخرى فتقفز
كجدي في مكانها ثم تسابق الريح إلى الخبز. واستقبلتنا القرية من بعيد
وبقيت معها حتى المساء وشوشتها في الأذن مودعاً . قلت لها « بعد
أيام أعود ... عندما انتهي من الفحص . »

ضربت لها موعداً عند الضحى . أخذت تقف كل يوم على التلة
ترفع رقبتها وتنظر إلى الغرب . كانت تعرف أني على درب المدرسة
أتجه إلى الشرق . عندما رأتني واخوتي قادمين ركضت الينا فحيتنا
وركبها الهمّ فكبرت سريعاً . أخذنا نتردد معاً على الساقية فترعى
ورسنها بيدي . لم يكن العم اسماعيل كريماً معها . معي أنا فقط . ما كان
على حق . كان ينبغي عليه أن يقدر أني ارفض عنبه إن لم يقدم لها وجبة
كاملة من نبات الذرة كنت أغافله فآخذ من أمام بقرته أحسن الحشيش
وآتيها به فتضحك ملء شدقيها . جعلها المرح وطيب الغذاء مطهمة .
أما حمدان فقد كان مهذباً لطيفاً يحمل لها أفضل هداياه ويجلس معي
فيروي لي قصصاً بدوية ولكنه كان غبياً لا يعلم انها تنصت أيضاً
وتعي حكاياته تحفظها حتى ترويها لأطفالها . لن أقول شيئاً عن « نجيمة »
فقد فسدت بيني وبينها العلاقات . أتغافل إذا مرت كي لا أحييها .
جهدت في أن تسترضيني فأبيت : أنا ونجومة وإلا فلا .

كانت نجومة السعد الوحيد في السنوات العجاف كبرت وأطفلت
وغدت بعد قليل حامية القرية . نسلها كله كان سخياً . تلد كل عام
واخضوضرت القرية . جاء النحل من أبعاد قصية كي يسكن معنا
وأكلنا عسلا وسمناً . كانت تختال وهي تصعد التلة لم تتأفف من شيء .
كانت تفلح أيضاً حتى كبر ابنها خميس فألقت النير على عاتقه وكان
بها براً رحيماً .

لم يأبه أحد لانتقادات « نجيمة » . كانت تبعث على التأفف. وانضم
كل من في القرية إلي حتى حمدان الذي أخذ يعلمني الرماية وركوب
الخيل لأمانتي واحترامي « لنجومة » فهو يعرف أنها طيبة القلب .
عندما مرضت لم تأكل إلا قليلا ودرّت حليباً قليلا يومئذ فشفيت خوفاً
عليها وكانت تعرف معنى الواجب والعمل تحسّ منذ ما يقترب الخريف
أني مغادر القرية فيبدو عليها الحزن وتصبر . كانت تعرف عندما
أوشوش في أذنها كلمة الوداع أني ذاهب في الغد إلى المدرسة فتهمهم ثم
ترنو كل صباح للغرب حتى أعود .

كانت تفرح عندما تراني أطارد على الحصان وأدور حولها تقفز
كما فعلت يوم جئنا إلى القرية مع أنها ما عادت طفلة ولا صبية . كانت
تجن فرحاً عندما تراني ببزة جيدة تقترب مني فتشمّ ثيابي وتبتسم
كأنها تقول : أحسنت عندما رفعت السكين عن عنقي . »

حزنت القرية جميعاً عندما مات طفلها الأخير . لا يعلم أحد كيف
انتهى . كان موته سراً حتى على حمدان . درج اللفيفة ونفث الدخان
وفكر . جاء صحيحاً واعتنى به كما لم يعتن من قبل . لم يهمله أبداً . لم
تلدغه حية ما فلم تبد عليه أثار السم . شق جلده بمبضع فنّان ثم فرّغه
وجعله بوّاً .

كانت نجومة حزينة لا تهدأ تذرف دموعاً سخينة . تغافلني فتعدو

الى ابنها البوّ فتلحسه وتشمه وتخور ثم تعود بائسة إلى الساقية .
أحدثها فلا تجيب أطعمها التفاح فلا تأكل . وضوت قليلا قليلا .

ودعتها عندما جاء الخريف فلم تبد عليها لهفة الماضي وذهبت إلى
المدرسة لم أعد بعدها إلى القرية ، أثقل علي وعليها الشتاء ، طوّحت بي
دروب المصير. ما كنت أحسبني أعود يوماً بعد ان ذهب السعد في
رحلة شتائية جاء بعدها صيف جاف — محرق . جفّت عروق التراب ،
ذبلت أعصاب الأرض وروحها .

أخذت أتلمس جدران اللبن حتى جرح يدي التبن . لم يعرفني
فيها شيء . مات مواء القطة على الجدار. أنكرتني المغارة كحية رقطاء...
لم يعرفني حمدان قلت له : « ماذا تفعل هنا ؟ » فأجاب « أنتظر الراحة. »

— وأنت نفسك لماذا ذهبت إلى القرية ؟ ألم تسمع بالجفاف ؟
ألا تعلم أن الطفولة ماتت بها منذ عهد بعيد ؟

— ذهبت أشم رائحة التفاح .

— هل وجدت شجراً ؟

— وجدت رائحة التفاح ، كلما حفرت بأصابعي أبعد كلما فاح
اكثر . لولاها لما عرفني حمدان . كنت أحفر وهو يمدّ أنفه إلى
التراب حتى سجد . لقد اقترح علي ان اشتري عجلة أخرى واشترط
ألا نسميها « نجومة » . فقد انضم إلى « نجيمة » بعد موتها . قلت له :
« ولكنها بكتها. » فأجاب : « أريد مع ذلك اسماً آخر ، اسماً جديداً
تجيء معه المياه ، تخضوضر التلة ، يملأ خوابينا عسلا ، يدهن خبزنا
سمناً ، يمرع معه التفاح . »

قلت : « ومن يقف مع الجديد على الساقية ؟ من يسرق التفاح ؟
شاخ العم اسماعيل . كيف لي بذرته الخضراء ؟ »

— ألم تتزوج ؟ أليس لك ابن ؟

قلت : لا !

– أأنت علي حقاً ؟

– نعم أنا علي وهذا التراب على يدي . أنظر اخضوضرت راحتي .

– أنت علي ولكن الهشيم في قلبك .

– لا ! لا ! انه الخوف من الحية الرقطاء .

– قتلتها برصاصة .

– لا تموت الأفعى !

– اقسم انها ماتت . ألم تر كيف دست رأسها .

– عم حمدان ! لا تموت الأفعى .

– قلت لك ماتت .

– عم حمدان لا تموت الأفعى .

– قلت لك ماتت ، ماتت ، ماتت .

– لم إذن كل هذا اليباب .

– يأتي الجدب عندما يغيب السعد .

– تنتظرنا الحيات على باب مغارة التأمل .

– أيتني باسم جديد أقتل كل الأفاعي . رصاصي لا يخيب . لا تحزنك رجفة يدي . تعود الحياة على ندائه . أنتصب على قدمي كمارد مجنون .

وقفز حمدان كمارد مجنون ولوح بعصاه فوق الجدب واليباب والدمار . صاح وأرغى كتنين خارج من أعماق صخب البحار ، ثم عاد إلى عجزه وأقعى وارتجفت يداه وضحكت ثنيته الصفراء الوحيدة ودرج لفيفة أخرى ثم نفث الضباب الأزرق كموجة خرجت من قعر محيط .

– عم حمدان . من أين آتيك بالأسم الجديد ؟

– وَلْ يا علي ... ربيتك كي تبدع الاسماء .

– والأفعى ؟

– قلت لك ماتت . ماتت .

ثم قفز عم حمدان ولوح بعصاه فوق الجدب واليباب والدمار .

قفز عم حمدان حتى لامس عقاله عرش الله وهو يصيح : ماتت الأفعى ... ماتت . ظل يقفز من أعماقه ... من أعماق البحار ... ماتت الأفاعي ... أبدعوا الأسماء الجديدة .

ابو صياح

كان « ابو صياح » يشير الى مكتبي كأنه يدعوني لكأس من الشاي . أنظر اليه من النافذة كلما أجهدني العمل . بماذا يفكر بائع البطيخ ؟ نضّد بضاعته بكف فنان ، زرقاء من غير عوج دون اثنتين او ثلاث شقها نصفين يغري بها العابرين و « اللوكس » يضيءُ بنوره الفاقع الطريق وظلمة نفسي . كنت اراه يرتشف كأس الشاي الصغير ، أفهم من اشاراته العجلى المرحة انه يدعو الزبائن لتناولها معه . يحب الضيف ، يثرثر .

يظل يشير اليّ فيلتفت القابعون على كراسي القش الواطئة ويحدقون اليّ ثم يعودون الى الاستماع ، يبدون من بعيد شخوص سينما صامتة .

سألت « ابو صياح : منذ كم انت هنا ؟ »

— اجيءُ مع الصيف ، أذهب مع الشتاء ، يطردني من هذه الزاوية . تظل صامتة قفراً حتى أعود .

— تجيءُ مع الصيف ام مع الربيع ؟

— مع البراعم والفجر امد سجادتي هنا وأصلي .

— وتشرب الشاي !

— أشربها واستمع الى المذياع . أغني ايضاً .

— صوتك جميل ؟

— لا ، ولكني أغني . مراق !

— من اين جاءت كلمة مراق ؟

ضحك ابو صياح وقرّب مني كرسيه الواطئ وارتشف جرعة شاي وتلمظ ولحس شفتيه بلسانه وحك شعر رأسه القليل ثم قال :

— لا اعرف من اين جاءت . سأسأل الشيخ . أنا لا أقرأ ولا أكتب . أظن الحكواتي « ابو رياح » يعلم . هل تعرفه ؟ حكواتي العمارة ؟

— سمعته .

— أنت تذهب الى هناك ؟

— نعم أذهب .

— لماذا ؟

— مراق !

— من تحب ، ابو زيد او الأمير حسن او دياب ؟

— أحبّ شبيباً .

— آه يا عيني ، شبيب التبعي ما في مثالو .
ولا جابت الدايات مثل شبيب .

— فهمت انت لا تحب « أبو زيد »

— دياب اهم .

— أي روح العمى ضربك ... أي شو راحت النخوة من روس الرجال ولك خالي ...

« أبو صياح » مهذّب حلو الحديث لا يجرح نديمه . يبدو أني أثرته فأخرجته .

— العمى ضربني ... عيب هذا يا « ابو صياح »
لا تآخذني ولك خالي ... طيرت ضبنات العقل . شيتي شو جاب دياب لسيد خضر بو زيد ؟ شو جاب سهيل للثّريا ؟

— لولا حيل النساء لساد دياب القوم فكان وذريته أمراء تونس حتى

يومنا هذا .

– لو كان صميدعي مثل أبو زيد كان حرق الدين شيتا ودبجا وخلص ...

– ألم تسمع قوله : « ون عانيّ الله ودبحت عدواني

لاعمل لكي بكرا وعلّي حبالها . »

ما كان يعلم ابو صياح أني كنت عاشقاً . أجد العذر للمحبين . لأن العشاق لا يخطئون ، تتنزه نفوسهم يتألقون كومضة إلهية . لو علم ابو صياح أني منذ يومين أطوّف على غير هدى في دمشق كقبيلة بدوية ضلّت سبيل الكلأ والريّ !

ماتت منذ يومين زوجة جارنا الشيخ وأظنه يبحث منذ اليوم عن أخرى . أليس عجيباً أن تموت صبيّة ويعيش عجوز ، يبلغ السبعين او يزيد ؟ لم أفكر بالزواج الا حين رأيتها على النافذة أما هي فقد كانت تفكر بالموت .

يوم عرسها قالت لها امها : إفرحي ، إنه ميت قريباً ثم ترثين وتتزوجين أحسن فتى . سنة او سنتان ، أنت صغيرة ، سبعة عشر عاماً ليست شيئاً وسنتان . تسعة عشر ، ذلك عمر صغير على الزواج ... من ينتظر الموت ؟ من يفرح بالموت ؟

طرقت بابه هي والموت ، نذيرا به . كان الشيخ فانياً . جاءته كي تفرح برحيله الى مملكة التراب والدود .

امتلأت نوافذ زقاق الورد بالعيون البلهاء تطل على موكب الجنازة المرحة . لعلعت الزغاريد ترحب بساكنة الحي الجديدة التي جاءت ترث الشيخ .

في صباح اليوم الثاني قام الشيخ لصلاته في المسجد الجامع وأطلت فاطمة من الشباك فاستفاق الحيّ جميعاً كي يرى .

كدت اقول لأبو صياح : « أنا لا يعنيني أبو زيد ولا دياب . أنا حزين .

» إفرحي يا عروسا لا عروس لها ... من كان يظن يا ابو صياح ان الإرث انتقل الى صاحبه قبل مضي عام ؟ هل تصدق يا أبو صياح أن الشيخ وضع اساور فاطمة في خزانته الحديدية كي يخطب أخرى ... هل سمعت في كل ما رواه الحكواتي أن الشيخ يرث الفتاة ؟ هذه ليست اسطورة . إذهب الى حي الورد اذا كنت تحب ترتيل القرآن عند النافذة التي كانت تطل منها فاطمة وترفع يدها بتحية الصباح ثم تضع السبابة على الشفتين ، لي أنا . القابع أمامك على كرسي واطئة، حزين لأن فاطمة لم تفرح بالموت . جاء معها الى زقاق الورد فاختار من يحبه . » كانت تكيد للشيخ ككل النساء يا ابو صياح غير أن صحبة الموت خطرة .

– ولك عمي الطبل بدوما والعرس بحرستا . هادا قول الزناتي مو دياب .

– عفواً الحق معك . فارس « الخضرة » لا يقول هذا القول . لكن سؤال : لماذا اختلف الأمير حسن وابو زيد ودياب ؟

وقف ابو صياح وكأس الشاي الصغير الشفاف بين اصابع يمينه الثلاث كأنه يشير به ثم عاد فقعد ووضع الكأس امامه وحدق اليه بعينين فاغرتين بلهاوين كأنه يطل على موكب فاطمة في زقاق الورد .

– لم افكر من قبل ، شيءٌ عجيب .

– قل يا ابو صياح . لماذا اختلفوا ؟

نقر بأظافره على الكاس ونظر اليّ وأشار بسبابته يقول : لا بد كان هنالك امرأة . ان كيدهن عظيم .

– أية امرأة ؟ لم تحدثنا القصة عن شيءٍ من ذلك .

– لم يرو الحكواتي كل شيءٍ ولكنني لا أرى سبباً آخر .

– أبو صياح . اذا اختلف فارسان على امرأة تبارزا . انها كالغار يرصع جبين الغزاة .

– ولكنهم فرسان

– بلا حب ولا امرأة .

– تريد ان تقول عنهم ذئاب ؟

– في الليالي الروسية الجليدية الصقيع يتحلق الذئاب في دائرة اذا اخطأتها الفريسة والصيد ، تحلق بعيونها كي لا تمسها اصابع النعاس حتى اذا ألمت بأحدها غاشية النوم مزّقه الآخرون وأكلوه . ملك طبيعة الذئب إذا عشق أو جاع انتظر عياء رفيقه حتى يسقط فيأكل جيفته .

النسر مرق من عشه كسهم ويطوف بالسموات حتى إذارأي من اعاليه شوكة او صخرة حط كمارج من نور ففقأ الشوك عينيه حتى لا يرى جوعه او كسرت الصخرة رأسه .

– كمّل ولك خالي عجبتني هالحكاية .

– الفرسان يا ابو صياح عشاق آيات ، ينجردون للطراد في أول نزال بخيال امرأة وآخر غزواتهم هي نفوسهم ، لا تشم في اقامتهم على الارض رائحة جيفة ولا عطر فراش الزانيات . جنونهم الوحيد هو الموت يبدعونه كقصيدة لا يغتالون الا انفسهم . نصرهم العظيم انتحارهم : عين على شوكة ، رأس على صخرة .

– حرام يا أخ ماذا تقول ؟

– انهم فوق الحرام والحلال . لهم شرائعهم : أولى حروف حكايتها حب وآخرها موت لا يورث ولا يرث .

وجاء أطفال » ابو صياح » في صخب قافلة جائعة فاقتعدوا الكراسي وفخذيه وتعلق اكبرهم على ظهره وأدارت امهم ظهرها الينا حجاباً وخفراً فأمسك بالبطيخة المكسورة وأخرجت المرأة الجبن والخبز من

الكيس وبدؤوا يأكلون .

– طاب مساؤك يا ابو صياح !

ترددت عليه ذلك الصيف كل مساء . كنا نتحدث عن الذئاب والفرسان . كنت اجده يروي لزبائنه قصص « ابو رباح » من زاوية جديدة ، زاوية الذئاب والفرسان . ورحلت سنوات عشرا عن دمشق .

كنت موقناً ان « ابو صياح » يذكرني ، أظنه يعلم أني بت في المكتب المطل على زاوية طريق الربوة . حييته بالأمس عندما مرّت سيارتي أمامه وأجاب . لقد عرفني حتماً . محال الا يكون رأى صورتي على الصفحة الاولى وفرح بها : صديق الأمس الذي حكى كل حياته وأحزانه ، يذكر نصيحته .

– ما زلت « ولداً » ، تكبر فتنسى ، سوف تحبك ألف امرأة .

قد لا يعلم ابو صياح أني أحببت الف امرأة ومشيت على ألف درب ، ولكن قلبي اهترأ حزناً . ما زلت على عهده بي يرهقني المساء تعشش عتمته في اعصابي ، ينسرب موت يومي في كياني كله . انهد الى رحلته كل صباح جديداً مرحاً أقسر ذاتي على الفرح وتغيب الشمس مهمومة الضياء فتهيم العتمة في دمي .

نعم عرفني « ابو صياح » ، انه يشير اليّ . زبائنه يتلفتون ناحية النافذة وانا ارى . كأني به يقول : « انه صديقي ... سعادة ان نجد اصدقاءنا في هذه الغرفة الرزينة ، المتكبرة على الشارع ... » كأني به يؤكد لهم انه سيزورني ويهديني من بطيخه ... ارسلت السائق البارحة فاشترى لي من عنده للبيت واوصيته ان يكون كريماً ... انه يعلم أن صديقه لم ينسه .

عدت من النافذة الى المقعد ثم قمت فزرعت أرض الغرفة طويلا . كانت الدوامة مخيفة تأكلني . من انا ؟ ما انا ؟

في الغرفة مكتب واقلام وورق وساعة واقفة . أمامي رزم لم أقرأها بعد ، تافهة كلها تبعث على الدوار وفي الأدراج اوراق اخرى . مشجب قريب من الباب عليه محفظة ثمينة . ظلت عليه لم تمسها يد منذ أصبحت صاحب المكتب والمقاعد حولي كثيرة مريحة وفارغة حتى الخواء . وهنالك خزانة وهاتف ، هاتفان ، ثلاثة وأنا ايضاً : شيءُ من الأشياء . وابو صياح يشير اليّ .

رنّ الهاتف فرد شيءُ آخر يتكلم من الطرف الثاني :

— ما الأخبار ؟

— لا جديد ، لا شيءُ هاماً في العالم . ليلتنا صامتة . لم ينعس أحد

— مظاهرات خطيرة في مدريد .

— وبرشلونة .

— إنقلاب في كولومبيا .

— وفي شاطئ الذهب ، في كل الشطآن الذهبية .

— ثورة في هونولولو .

— لا لم ينعس أحد . دعني أكاد أطبق جفني عمداً . لا شيءُ هاماً في العالم .

— الساعة التاسعة ما حانت ساعة النوم .

— اريد أن أنام عمداً قلت لك . أريد ان اشمّ رائحة جيفتي . ألا يستهويك نتنها ؟

— لقد استيقظ الفرسان وهمّوا ...

— الى رحلة النعاس والجيفة ...

قسرت عيني على النعاس . كان « ابو صياح » يشير اليّ عنيف اليدين أن لا . ودرت بالغرفة حول نفسي والفراغ ، بطئُ الخطو مريض القدمين . من أين جاءت الشيءُ الآخر بالأخبار : لا مظاهرات في مدريد

ولا برشلونه ، كولومبيا هادئة وشاطئ الذهب ، كل الشطآن الذهبية ... لا شيءُ في دمشق . هادئة حتى الموت لولا حلقة تحبّ النعاس مولعة بالرائحة . من اين الصقيع ؟ زقاق الورد يرتجف برداً . وابو صياح يشير لي ان لا تنم .

— انها غاشية النعاس يا ابو صياح ... النوم في الساعة التاسعة هنيءُ يا ابو صياح ومن يدري فقد استيقظ بعده . الرائحة قاتلة يا ابو صياح بي جنوح منتحر الى الكرى . النوم الباكر ارادة وقوة ، هنيءُ ، ومن يعلم فقد نفيق بعده من حلم الليالي الجليدية .

أخذ يضرب على فخذيه ويشير لي أن لا فتركت المكتب ودلفت اليه.

لم يعرفني « ابو صياح » انكرني . نسيت انه امي لا يقرأ الصحف ولا يشاهد التلفزيون. شاشته حرام عليه لأنه يجيءُ مع الربيع إلى بيته على زاوية طريق الربوة ورثها عن أبيه ، هي والكراسي الواطئة والسماور وسجادة الصلاة .

اقتقدت الكرسي وطلبت بطيخة فقدم لي كأس الشاي ، كأسي أنا الذي ورثته من زقاق الورد .

ظلّ يشير الى مكتبي كأني هناك .

— الذين فوق ، كالشيخ الذي اغتال عفاف فتاة ... كالفتاة التي تعيش لميراث . يصعدون على السلالم حبواً لا يمرقون كمارج من من نور . ترعبهم الصخرة والشوكة . نحن الذين تحت نحب الفرسان ... أنظروا انظروا ... اسمعوا كل الكذب هناك ، مصنع الدجل .

لم ينهني ابو صياح عن النعاس اذن. يريد ان انام فيستمتع بالرائحة .

— هناك الرياء والكذب ، يطعنوننا من الخلف ...

دار بزر المذياع : مظاهرات في مدريد ، ثار أهل برشلونه ، انهم مثلنا ، يكسرون قيودهم ، انقلاب في كولومبيا ، ثورة في شاطئ

الذهب ، في كل الشطآن الذهبية .

– كفرنا يا إخوان بأبوزيد والأمير حسن ودياب ، بالزناتي وعنترة ، بكل حكايات ابو رباح ... الذين فوق ، حلقة ، دائرة في ليل صقيع جليدي ، كلهم نهم ، جائع ، يريدون أن يأكلوا ... يصيحون وراءنا كي نلتفت الى الجهة الأخرى فتجيء الطعنة من خلف ...

استيقظت الأشياء ذات صباح . أمسك ابو صياح ببطيخة أطفاله التي يضعها على رأس الكومة كل يوم حمراء وردية تغري العابرين وتظل حتى يجيء اولاده مساء ، وردية كشفة ما قبّلها أحد ... ثم انطلقت رصاصة دخلت قلبه من الخلف فسقط على الكومة وتبعثر بطيخه ضمّ حصة اولاده الى قلبه ، سقط معها وانسرب نسغها خلل دم القلب خطاً وردياً شفافاً في نهر أحمر قاتم كجدول حريري ، طفل يكره النعاس .